سورة القدر

مكية وهي ست آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

سورة القدر مكية، إلا أن بعض المفسرين قالوا إنها مدنية. قال الواحدي هي أول سورة نزلت بالمدينة. (فتح البيان، وروح المعاني)

عند البحث في هذه السورة نرى أن المفسرين قد عرَّفوا كلمة الجمهور تعريفًا عجيبًا. قال بعضهم إنها مكية عند الجمهور، وقال بعضهم إنها مدنية عند الجمهور. فيا ترى، من هؤلاء الجمهور الذين يعتبرونها مكية مرة ومدنية مرة أخرى. والغريب أن المفسرين يقولون إنها مدنية عند الجمهور دون أن يذكروا اسم أي صحابي ممن اعتبرها مدنية. إن صحابة النبي ﷺ هم الذين بوسعهم اعتبار سورةٍ مكيةً أو مدنيةً، فكان على المفسرين أن يذكروا اسم بعض الصحابة الذين اعتبروها مدنية ما داموا يقولون أنها مدنية عند الجمهور.

ثم هناك روايات في التفاسير تقول أن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة يقولون أنها نزلت بمكة. فكيف يقال إذن أنها مدنية عند الجمهور؟ (فتح البيان)

لقد تبين من هنا أن تعبير "الجمهور" الذي راج في كتبنا يُستخدم خلاف معناه اللغوي، فكلّ من وجد ثلاثة أو أربعة آراء موافقة لرأيه قال إن الجمهور يرى ذلك، مع أن الواضح أنه لم يُبدِ كل الصحابة رأيهم فيما إذا كانت سورة ما مكيةً أو مدنيةً، بل إن بعض كبار الصحابة فقط هم الذين يُبدون رأيهم بهذا الصدد، وما دام هؤلاء الصحابة قد قالوا صراحة إن سورة القدر مكية، والمفسرون أنفسهم يسلّمون بذلك، فلا أدري كيف اعتبروها مدَنيةً خلافًا لهذا القول القطعي للصحابة.

أما المستشرقون –وهم قوم يحاول معظمهم تحوير الأحداث تعصبًا كالقسيسين وأمثالهم، وبعضُهم يبحث عن الحقيقة بأمانة– فهم أيضا اعتبروا هذه السورة مكية، فمثلا قال المستشرق الشهير "نولدكه" إنها نزلت بعد سورة الضحى فورًا. (تفسير القرآن للقسيس "ويري")

وقد ذكرتْ بعض الروايات الحديثية سببًا عجيبا لنـــزول هذه السورة، وهو أن الصحابة سمعوا من اليهود أن أربعة من الأنبياء عبدوا الله تعالى ثمـــانين ســـنة و لم يعصوه طرفة عيْن، وهم أيوب وزكريا وحزقيال ويوشع، فعجب الصحابة منـــهم وغبطوهم، فنـــزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَـــةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (الدر المنثور، والبحر المحيط).. أي أنكـــم تغبطـــونهم بعباداتهم دونما ارتكاب إثم ثمانين سنة، أما الإسلام فلو عبد فيه المرء ربه ﷻ في ليلة القدر كانت عبادته فيها أفضل من عبادة ألف شهر والتي تساوي ٨٣ سنة.

وهذه الرواية ليست صحيحة في رأيي، والتسليم بها محال عقلاً؛ إذ كيف يمكن أن تُفضَّل عبادةُ عبدٍ ليلةً واحدة على عبادة شخص يعبد الله بصدقٍ ثمانين عامـــا؟ فلو قيل: لأن عبادته في ليلة واحدة تكون مفعمة بالحرقة والخشوع والحب والعشق لله تعالى فتفضل على عبادة ثمانين سنة، فهذا ليس بأمر ذي بال يـــستحق ذكـــرًا خاصًا، إذ يعرف الجميع أنه لو امتلأت عبادة المرء ساعةً واحدة –دَعْك من ليلـــة واحدة– بإخلاص ومحبة وخشوع لا توجد في عبادة شخص آخر لثمانين ســـنة، لكانت عبادته أفضل من عبادة الآخر. بل أقول: دَعْك من عبادة ساعة، بـــل لـــو تيسرت للمرء مثل هذه العبادة دقيقةً واحدة لفضلت على عبادة من يعبد الله عبادة عادية لثمانين سنة أو مائة سنة. خذوا مثلاً إبراهيم عليه السلام، فإنه رُزق ابنه البِكر بعد أن تجاوز الثمانين، والثابت من القرآن والتوراة أنه لما كبر ابنه أمره الله تعـــالى أن يذبحه في سبيله (سورة الصافات:١٠٣، والتكوين ٢٢: ١–١٤). وكان تأويل هذا الذبح في رأيي أن يترك ابنه في وادٍ غيرِ ذي زرع حيث لا طعام فيه ولا شـــراب، فكأنه يقتله في الظاهر، ولما كانت القرابين الإنسانية رائجة يومها، فأراه الله تعـــالى هذا الأمرَ في المنام حسمًا لقضية القرابين الإنسانية أيضا. ونظرًا إلى عـــادة تقـــديم

القرابين الإنسانية ظنّ إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى يريد اختباره حيث يريد منه فعلاً أن يذبح ابنه الذي رُزقه بعد الثمانين من عمره. فذكر ذلك لابنه اسماعيل -علمًا أن الذبيح عندنا هو إسماعيل عليه السلام الذي استعدّ للذبح فورًا نتيجة التربية الجيدة التي تلقاها من أبويه- فقال الابن: ما دام الله تعالى يأمرك فاذْبَحْني وإني راض برضا الله. فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى البرية ليذبحه، فلما ألقاه على جبينه وهمَّ بذبحه بالسكين، أوحى الله إليه ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾(الصافات:١٠٥-١٠٦).. أي لم نكن نريد هذا، وإنما عليك أن تذبح كبشًا تخليدًا لذكرى هذا الحادث، لأن هذه الرؤيا ستتحقق بطريق آخر.

لا شك أن اللحظة التي استعدّ فيها إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه في سبيل الله أفضلُ من عبادة كثير من الناس ثمانين سنة أو مائة، إذ يوجد في الدنيا بالفعل أناس يبلغون ثمانين وحتى مائة سنة، بل قد يبلغ البعض ١٥٠ سنة. ولقد رأيت بنفسي شخصا عمره ١٤٠ سنة. لقد جاءني من لاهور مشيًا ليبايع على يدي، وقد قال خلال الحديث عن عمره: إن الحاكم السيخي "المهاراجا رنجيت سنغ" جاء إلى شيخي مرة طالبًا منه الدعاء، وأهدى له جاموسةً، وكنت إذّاك شابًا، فأمرني شيخي أن أذهب بالجاموسة إلى الماء وأغسلها. ولقد روى لي ذلك قبل عشرين سنة، أي بعد انقضاء قرابة قرن من الزمان على هذا الحادث، وهكذا يكون سنه وقت البيعة حوالي ١٢٥ سنة. وقد أخبرني الإخوة أنه قد عاش بعد البيعة حوالي ١٥ سنة، مما يعني أن عمره كان ١٤٠ سنة. وكان الرجل قويًا حتى في سن الـ ١٢٠ إذ جاءني للبيعة في قاديان من لاهور مشيًا. وهذا الإنسان لو ظل كل عمره راغبًا في الدين، وعبَد الله تعالى ١٢٠ سنةً فلا شك أن ساعة واحدة من عبادة إبراهيم عليه السلام كانت أفضل من عبادته. وهذا ما أكده فعل الله تعالى بالفعل أيضا، إذ لم يعطه ما أعطاه إبراهيمَ من بركات، مع أن الله تعالى لا يضيع عمل عامل إذ يقول ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨)، فما دام الله تعالى لا يضيع أي حسنة لأحد، فكيف يمكن أن يضيع الله تعالى عبادة هذا الإنسان لـ ١٢٠ سنة.

أما القول أن عبادة ليلة تفضل أحيانًا على عبادة ٨٣ سنة لما فيها من لوعة وخشوع وصدق وإخلاص، فهذا أيضا لا ينطبق هنا، إذ ورد في تلك الرواية أن الأنبياء السابقين عبدوا الله تعالى ثمانين سنة، فحزن الصحابة لسماع ذلك إذ تأخروا عنهم. أما لو أخذنا بحجة الخشوع والخضوع في العبادة فكان معنى ذلك أن عبادة غير النبي ليلةً واحدةً صارت أفضل من عبادة الأنبياء ثمانين سنة، وهذا باطل بداهةً. لو سلّمنا جدلاً بصحة هذا المعنى فبيانه بهذه الكلمات خلاف للبلاغة، إذ يجب أن يقال في هذه الحالة أن أصحاب الرسول ﷺ مخلصون لدرجة أن عبادتهم للحظة أو لليلة أفضل من عبادة هؤلاء الأنبياء لثمانين سنة، ولكن ما يقوله الله تعالى هنا هو أن عبادة هذه الليلة الخاصة أفضل من عبادة ثمانين سنة. وهذا لا يمكن أن يكون جوابًا لتلك الرواية اليهودية، لأن ترجيح ليلة واحدة على السنوات الأخرى دونما سبب أو خصوصية مماحكةٌ وخلافٌ للعقل ولعظمة الله.

ثم يجب أن نفكّر أنه إذا صارت عبادة مؤمنٍ تقي عاديّ ليلةً واحدة أفضلَ من عبادة الأنبياء السابقين ثمانين سنة، فهذا ظلم ما بعده ظلم، لأن هؤلاء الأنبياء لم ينالوا بعبادة ثمانين سنة من النعم ما ناله مسلم عادي بعبادة ليلة واحدة. فثبت أن مفهوم هذه الرواية يتنافى مع تعليم القرآن والعقل.

الترتيب والترابط:

إن علاقة هذه السورة بما قبلها واضحة، حيث قال الله تعالى في السورة السابقة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.. أي اقرأ القرآن، أما في هذه السورة فقد تحدّثَ تعالى عن عظمة القرآن وفضله فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. أي هذا هو الكتاب الذي يحوي كل القرارات المتعلقة برقي الأمم وانحطاطها، وبتعبير آخر: إن في القرآن الكريم تفصيلا لأسباب رقي الأمم وانحطاطها، حيث أخبر الله تعالى فيه عن المبادئ والقواعد التي إذا عمل بها الناس ازدهروا، وكذلك عن الأمور التي إذا اتّبعوها هلكوا. والأمر الذي يبلغ من الأهمية بحيث إن قبوله يؤدي إلى نجاة العالم ورفضه يؤدي إلى دماره فإن أهمية قراءته أمام العالم أمرٌ واضحٌ بيّنٌ، فإننا نرى أن

الناس يدقّون الطبول على أمور بسيطة، فإذا رأوا هلال العيد أعلنوا عنه بدق الطبول، أو إذا أتت إلى السوق بضاعة جديدة أعلن عنها التجار بدق الطبول. وإذا وُلد عند الملك ولدٌ نشروا خبر ولادته في الجرائد بإعلانات عريضة، مع أنه قد يموت بعد أيام أو يصير شخصًا فاسدًا حين يكبر حتى يقضي على مُلك أبيه. إذا كان هناك خطر هجوم الجراد على الزروع نشرت الحكومات إعلانات في الجرائد وأخبرتهم بالتدابير الواقية التي لا بد من العمل بها فورا. وإذا علمت الحكومة أن أسعار الغلال أو القطن وغيرهما سوف ترتفع أو أن الأمطار ستهطل بغزارة، فإنها تنشر إعلانات مكررة ليصل الخبر إلى أسماع الناس. فما دام الناس يعلنون عن أمور بسيطة بدق الطبول بحماس شديد، فكم بالحري أن يتم الإعلان بكل قوة وحماس وعلى نطاق واسع عن الأمر الذي يتوقف عليه مصير البشرية، والذي فيه تفصيل لأسباب رقي الأمم وانحطاطها، والذي إذا عمل به الناس نجوا، وإذا انحرفوا عنه هلكوا.

فقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ في سورة العلق كان أمرًا ربانيًّا للرسول ﷺ بأن يعلن مرة بعد أخرى في العالم عن نزول القرآن وتعليمه، أما سورة القدر فبين الله تعالى فيها أن نشر القرآن في العالم ضروري لأننا أنزلناه في عصر القدر.. أي أنه كتاب يحتوي على كل الأقدار المتعلقة برقي العالم وانحطاطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

لَيْلَة: الليل: مِن مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، أو إلى طلوع الشمس، وهو خلاف النهار. وقيل: الليلُ مثلُ الليلة، كما يقال العشيّ والعشيّة. وقال المرزوقي: يُستعمل الليل إزاء النهار، والليلة إزاء اليوم. (الأقرب)

القَدْر: مبلغُ الشيء؛ وكونُ الشيء مساويًا لغيره بلا زيادة ولا نقصان، يقال هذا قدرُ هذا، أي مماثِلُه ومساوٍ له. والقدر: الطاقة؛ الحرمة؛ الوقار؛ الغنى؛ القوة. وقالوا: أقمتُ عنده قدر أن يفعل ذلك: أي الوقت اللازم لفعله (الأقرب). وحيث إن كلمة القدر مصدر، فمن معانيه: الضيق؛ الحُكم؛ السلطة؛ التعظيم؛ والتدبير.

وكذلك ورد: "ليلة القدر: قيل هي مِن أوتار العشر الأخيرة من رمضان، أي من الليالي التي عددها فردٌ لا زوج". (الأقرب)

وقد ذُكرت هذه الليلة في مواضع أخرى من القرآن الكريم بكلمات مختلفة كقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾(الدخان:٤)، فليلة القدر هي الليلة المباركة أيضا. وقال الله أيضا ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(البقرة:١٨٦)، وبالنظر في هاتين الآيتين نعلم أن القرآن الكريم بدأ نزوله في ليلة من ليالي رمضان المبارك، ولذلك سميت هذه الليلة مباركة بوجه خاص.

التفسير: ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يرجع إلى القرآن الكريم، وحيث إن السورة الماضية ذكرت نزوله فلم يقل الله هنا إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، بل اكتفى بذكر الضمير وقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، لأن كل مَن تدبر في هذه السورة فهمه بسهولة.

لقد ذكرنا آنفًا لدى شرح الكلمات أن الليلة والليل بمعنى واحد، بيد أن المرزوقي أحد اللغويين يرى أن الليل يُستعمل إزاء النهار، والليلة إزاء اليوم. وقد استعمل القرآن الكريم الليلة والليل كليهما، لكنه ذكر الليلَ أكثر من الليلة، إذ ورد الليل فيه ٧٩ مرة، والليلة ٨ مرات فقط حسب ما أحصيتُ. والغريب أن لفظ الليلة ورد في القرآن في معرض الحديث عن نزول الوحي وما يتعلق به، فمثلا قال الله تعالى في ذكر ليالي رمضان ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾(البقرة:١٨٨)، وقد قال الله تعالى عن رمضان شهرِ الصيام: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾(البقرة:١٨٦).. أي أن نزول القرآن بدأ في شهر

رمضان. فورود كلمة (ليلة) بشأن ليالي رمضان – شهرِ الصيام – دليل على وجود علاقة خاصة بين لفظ "الليلة" والشهر الذي نزل فيه كلام الله تعالى.

وكذلك وردت كلمة (الليلة) في ذكر الليالي الأربعين الخاصة التي نزلت فيها أحكام التوراة على موسى عليه السلام، والتي تَلقَّى فيها النبوءة عن بعثة الرسول ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(البقرة:٥٢). كما وردت كلمة (ليلة) مرتين في موضع آخر في القرآن في معرض الحديث عن هذه الأربعين ليلة حيث قال الله تعالى ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(الأعراف:١٤٣).

فترى في هذه الأماكن الثلاثة أن كلمة (الليلة) قد وردت في معرض الحديث عن نزول كلام الله تعالى.

وهناك أربعة مواضع أخرى وردت فيها كلمة (الليلة) بصدد نزول القرآن، فأولاً قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾(الدخان:٤).. أي أنزلنا القرآن في ليلة مباركة. ثم ثلاث مرات في هذه السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

إذن، فقد وردت كلمة الليلة في القرآن ثماني مرات، وفي كل مرة نزلت في معرض الحديث عن نزول كلام الله وما يتعلق به، ولا يمكن اعتبار هذا صدفة، بل لا بد من حكمة فيه. وهذا الفرق بين استعمال القرآن الكريم لكلمتي الليل والليلة ليس من دون معنى.

وأرى أن استعمال (الليلة) في معرض الحديث عن ليالي نزول الوحي، واستعمال (الليل) بصدد الليالي الأخرى راجع إلى قاعدة عربية شهيرة، حيث يُزاد حرف في الكلمة أو يُستبدل بحرف متقدم عليه في الترتيب الألفبائي زيادةً في المعنى وتأكيدًا له. فمثلا: الربس والربض متشابهان، لكن الآخر أقوى من الأول، لأن رَبَسَه يعني ضربه بيديه، أما رَبَضَ الأسد فيعني أنه انقضَّ على فريسته وافترسها. فالفرق بين المعنيين واضح.

ثم القصم والقضم كلاهما يعني الكسر، لكن قَصَمَه يعني كسره فقط، أما قضمه فيعني كسره وأكله، لأن حرف الضاد يلي الصاد في الترتيب الألفبائي، فهو أقوى معنًى من الصاد.

ثم هناك المسّ والمصّ، والمسّ يعني اللمس، أما المصّ فهو وضع الفم على الشيء وامتصاصه.

ويقال نسَّ الناقةَ: أي ساقها وزجرها، أما نصَّ الناقةَ فيعني استحثّها واستقصى آخر ما عندها من السير.

ومعنى الفسل والفصل إبعاد الشيء عن الشيء، لكن الفصل أقوى من الفسل، لأن الصاد يأتي بعد السين في الترتيب الألفبائي.

وكذلك زيادة حرف في الكلمة تكون لزيادة المعنى، فمثلا: معنى اللَّبَب الصدرُ الواسع، أما اللَّبْلَب فمعناه البارُّ بأهله المحسنُ لجيرانه. إذن، فاللبلب لا يشير إلى سعة الصدر فقط، بل أيضًا إلى معاملة الناس بصدر رحب. والسبب أن اللبب ثلاثة حروف واللبلب أربعة.

ومن قواعد العربية أنهم يضيفون التاء في آخر اسم الفاعل من أجل توكيد المبالغة، وتضاف إلى الصفة المشبهة كقاعدة، فالراوي مثلاً هو من يروي الروايات، أما الراوية فهو من يروي شعر الشعراء بكثرة حيث يحفظ مئات الآلاف من أبياتهم. والنسّاب هو من يذكر النسب، والنسّابة هو من يذكر النسب جيدًا جدًا ويجيد ذكره. (الأقرب)

وحيث إن الليلة فيها حرف زائد على الليل، فهي أوسع معنى منه، ولذلك تُستعمل الليلةُ مقابل اليوم والليلُ مقابل النهار، كونَ اليوم أوسعَ معنى من النهار. ففي استعمال الليلة بصدد الليالي والأزمنة المتعلقة بنزول كلام الله تعالى إشارةٌ إلى عظمتها وسموّ شأنها.

وحيث إن الكلمات تُستعمل في الوحي الإلهي تارةً بمعناها اللغوي وتارة بمعناها المجازي تبعًا لقواعد الأدب العالي، فينشأ هنا سؤال: هل الليلة استُعملتْ هنا بمعناها العادي، أم بمعنى العصر المظلم الطويل؟

لقد ذهب جميع المفسرين القدامى إلى أن الليلة قد وردت هنا بمعناها المعروف، أي أن ليلة القدر تعني ليلة التقدير. ويرى المفسرون أن الليلة المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ هي أيضًا ليلة القدر التي هي إحدى ليالي رمضان، لقول الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (الكشاف، والقرطبي، وفتح البيان). فليلة القدر عندهم هي تلك الليلة الرمضانية التي نزل فيها القرآن، والتي كانت مباركة، والتي كانت ليلة التقدير.. أي الليلة التي قدّر الله فيها الخير والشر القادمين.

هناك اختلاف بين العلماء حول كيفية نزول القرآن الكريم في تلك الليلة، فمنهم من يقول: "أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصَّلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة." (ابن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس)

كذلك روي عن ابن عباس أن مِقْسَمًا سأله: هناك شبهة في قلبي، فقد ورد في القرآن أنه نزل في شهر رمضان، مع أنه قد نزل شيئًا فشيئًا في شهور مختلفة على مدى فترة طويلة، "فقال ابن عباس: إنه أُنزلَ في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملةً واحدة، ثم أُنزلَ على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام." (ابن كثير عن ابن عباس من رواية ابن مردويه)

فهؤلاء يرون أن نزول القرآن في ليلة القدر يعني أنه أُنزلَ فيها من اللوح المحفوظ وهو مكان كان القرآن فيه مكتوبًا منذ الأزل.

ويرى البعض الآخر أن نزول القرآن في شهر رمضان يعني بداية نزوله فيه، فقال العلامة أبو حيان: "وقيل الإنزال هنا هو على رسول الله ﷺ، فيكون القرآن مما عُبِّرَ بكله عن بعضه، والمعنى بُدِئَ بإنزاله به على رسول الله ﷺ" (البحر المحيط).. أي أن بعض العلماء يرون أن نزول القرآن في رمضان يعني نزوله على رسول الله ﷺ وليس على بيت العزة، وليس المراد من نزول القرآن هنا نزوله كله بل نزول بعضه، أي كانت بداية نزول القرآن على الرسول ﷺ في هذا الشهر.

وقد قال آخرون: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أُنزلَ في بيان عظمة رمضان القرآنُ، لا أن نزوله بدأ في رمضان، حيث ورد: "وقيل في معنى الآية: الذي نزل بفرضِ

صيامِه القرآنُ، كما تقول نزلت هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك". (فتح البيان)

والثابت أن "في" يفيد التعليل في اللغة العربية (الأقرب)، ومثاله في القرآن الكريم قول امرأة العزيز للنسوة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾(يوسف:٣٣).. أي هذا هو يوسف الذي بسببه تتّهمنني. كذلك ورد في الحديث: "عُذبتْ امرأة في هِرّةٍ حبَستْها". (البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء). فحرف "في" في قوله تعالى ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ للتعليل، والمعنى أن رمضان شهر عظيم حتى أنزل اللهُ تبيانًا لعظمته وشأنه الحُكمَ في القرآن.. أي لا شك أن الأحكام القرآنية هامة جدًّا، فكم هو عظيمٌ الشيءُ الذي نزل بشأنه الحكمُ في القرآن الكريم.

والذين فسروا الآية بأنّ القرآن كله نزل في ليلة معينة من رمضان من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، أو الذين فسروها بأن وحي القرآن بدأ نزوله في ليلة معينة من رمضان، قد اختلفوا في تحديد هذه الليلة، كما رويت بشأنها أحاديث مختلفة، فقد روى أحمد في مسنده عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ." (مسند أحمد، حديث رقم ١٦٥٣٦)

وقال البعض في شرح هذا الحديث أن المراد من هذه الليالي هي السادسة، والثالثة عشرة، والرابعة والعشرين، ولكنها في رأيي السابعة والرابعة عشرة والخامسة والعشرين، بدليل ورود كلمات (مضين) و(خلت).

وهناك رواية أخرجها ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ذُكر فيها أمر زائد بأن الزبور نزل في الثانية عشرة من رمضان، وأن الإنجيل نزل في الثامن عشر من رمضان. (فتح البيان)

لقد تبين من هذه الروايات ما يلي:

١- أن النزول في رمضان ليس مقصورا على القرآن الكريم، بل إن الأسفار السابقة أيضا نزلت في ليال معينة من رمضان.

٢- أن الصحف السماوية لم تنزل كلها في يوم واحد من رمضان، بل هناك ترتيب في نزولها، فبعضها في أول أسبوع، وبعضها في ثاني أسبوع، وبعضها بعد أيام، ونزل أخيرًا القرآن في الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين.

لو أخذنا هذه الأحاديث بمفهومها الظاهري لتعارضت مع القرآن الكريم والعقل والنقل، فإن الله تعالى يقول في القرآن الكريم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.. فإذا كان وحي الأنبياء السابقين أيضًا نزل في رمضان، فهذا يزيد من فضل هذا الشهر، فكان ينبغي أن يقال في هذه الحالة: شهر رمضان الذي أُنزلت فيه الكتب السماوية كلها، لكن القرآن الكريم لم يقل شيئًا عن وقت نزولها؛ لا شك أن عدم ذكر الشيء لا يعني عدمه، لكن الله تعالى يبين هنا فضل رمضان. ونزول الكتب السابقة في رمضان يزيد من فضله، فكان ذكر ذلك ضروريا هنا، لكن القرآن لم يذكر ذلك هنا ولا في أية آية أخرى، مما يعني أن هذه الروايات لا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها إنْ صحَّت.

والاعتراض الثاني على هذه الروايات عقلي وهو: أن يصير رمضان مباركًا لنزول القرآن فيه أمرٌ مفهوم، أما أن ينزل وحي كل نبي في رمضان فليس له مبرر عقلي.

والاعتراض الثاني عقلاً هو أن رمضان شهر قمري يتغيّر مكانه خلال السنة، فلو كان لنزول الوحي علاقة خاصة بفترة معينة فهذا مفهوم، ولكن لم يكن شهر رمضان رائجًا عند اليهود، فما كان بوسعهم أن يعرفوا متى نزل وحي إبراهيم وموسى وداود والمسيح عليهم السلام، وإذا كان في نزول الوحي في أيام معينةٍ فائدةٌ فما كانوا لينتفعوا بها، إذ ما كان لهم به علم، كما لم يكن بمقدورهم أن يعلموا ذلك، فما الفائدة في إنزال كل وحي في أيام رمضان؟ ولا يخلو فعلٌ من أفعال الله تعالى من الحكمة؟

والاعتراض الثالث عقلاً هو أن هذه الروايات تتحدث عن وحي إبراهيم وموسى وداود وعيسى فقط دون الأنبياء الآخرين، إذ تقول إن الكتاب نزل على إبراهيم في أول رمضان، وعلى موسى في السابع منه وعلى داود في الثاني عشر منه،

وعلى المسيح في الثامن عشر منه.. أي نزل على النبي الأول في أول رمضان، وعلى الثاني بعد ذلك وهكذا على من يليه، وهذا يعني أنه لم تنزل هذه الكتب في رمضان فقط، بل نزلت بحسب ترتيب زمن هؤلاء الأنبياء، فالنبي الأسبق زمنًا نزل عليه كتابه في رمضان أولاً، أما الأنبياء الآخرون فنزلت كتبهم في التواريخ الأخرى. وإذا كان الأمر هكذا فالسؤال هنا: في أي يوم من رمضان نزل الوحي على نوح وغيره من الأنبياء الذين خلوا قبل إبراهيم؟ ذلك أن الوحي نزل على إبراهيم في أول رمضان بحسب هذه الرواية، وليس قبل أول رمضان يومٌ يمكن أن ينزل فيه الوحي على نوح الأسبق زمنا من إبراهيم. فلو أن هذه الرواية قالت لم ينزل الوحي على الأنبياء في رمضان بحسب ترتيب عصورهم لأمكنَ القول أن الوحي نزل على نوح في أي يوم آخر من رمضان، لكنها تخبر أن الوحي نزل عليهم في رمضان بحسب ترتيب عصورهم، ولما كان نوح أسبق زمنًا من إبراهيم فيجب أن ينزل عليه الوحي قبل إبراهيم في يوم من أيام رمضان، ولكن ليس هناك قبل أول رمضان أي يوم فيه، فلا يبقى هناك يوم من رمضان لنزول الوحي فيه على نوح عليه السلام حسب الترتيب الزمني للأنبياء.

قد يقال هنا أن هذا الحديث يتحدث عن الأنبياء المشرعين ولم يكن نوح صاحبَ شريعة.

لكن هذا الجواب خلاف للعقل ولكلام الله تعالى. فالثابت تاريخيًا أن داود وعيسى لم يكونا من الأنبياء المشرّعين. افحصوا كتبهما -أيًا كانت حالتها- فلن تجدوا فيها أثرًا للشريعة. فليس في زبور داود عليه السلام إلا مناجاته في حب الله تعالى، ونبوءاته عن بعثة الرسول ﷺ، وأدعيته الخاصة بنفسه وأقاربه، فليس في كتابه أي شريعة. والحال نفسه بالنسبة إلى أناجيل عيسى عليه السلام، إذ ليس فيها إلا وقائع حياته وبعض معجزاته ووصاياه لأتباعه للعمل بشريعة موسى. فإذا كان داود أو عيسى قد أتى بشريعة جديدة فلا بد من اعتبار شريعة موسى منسوخة. إذا كان عيسى عليه السلام لم يأت بشريعة جديدة فكان عليه أن يأمر الناس بالعمل بشريعة داود، وإذا كان قد أتى بشريعة جديدة فكان عليه أن يقول لهم أن يعملوا بشريعته، لكن

الإنجيل كان ولا يزال خاليا من الشريعة بحيث لم يجد حواريو المسيح مناصًا من اعتبار الشريعة لعنةً، تهربًا من اعتراض اليهود (غلاطية ٣: ١٣)، إذ لو اعتبروها رحمةً فما كان عندهم جواب لسؤال اليهود: أين شريعة المسيح إذنْ؟ إذا كان أفضلَ من الأنبياء السابقين فكان يجب أن يأتي ناسخًا لشريعة السابقين.

أما الاعتراض الذي يرد على ادعائهم -أعني على زعمهم أن هذه الرواية تتحدث عن الأنبياء المشرعين فقط- مِن منظور قرآني فهو أن القرآن يعلن أن جميع الأنبياء المبعوثين بعد موسى عليه السلام كانوا تابعين له، حيث قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(البقرة:٨٨).. أي آتينا موسى الكتاب، ثم لم نزَلْ نرسل بعده رسلا تابعين له، وفي الأخير بعثنا عيسى بن مريم، ولكنا لم نعطه شريعة جديدة، إنما أعطيناه بعض البينات وأيدناه بروح القدس. فكيف يمكن القول -بعد هذه الآيات وأمثالها، ثم بعد دراسة كتب هؤلاء الأنبياء- أن هذه الرواية تتحدث عن الأنبياء المشرعين فقط، وأنها لذلك لم تتحدث عن نوح عليه السلام؟

وهناك آية أخرى تفنّد هذا الادعاء، وهي قول الله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤).. أي أن إبراهيم كان من أتباع نوح، بمعنى أنه لم يكن نبيًا مشرعًا، بل كان تابعًا لشريعة نوح الذي كان نبيًا مشرعًا، مثلما كان أنبياء بني إسرائيل تابعين لشريعة موسى -عليهم السلام جميعًا.

إذن فكيف يصح القول أن هذه الرواية ذكرت إبراهيم لأنه نبي مشرِّع ولم تذكر نوحًا لأنه ليس بنبيٍّ مشرِّع؟

وهناك اعتراض آخر على هذا التأويل لهذه الرواية، وهو أن كل الأنبياء المذكورين فيها هم إسرائيليون، والسؤال هنا: هل للأنبياء الإسرائيليين علاقة خاصة برمضان؟ الواضح ليس هناك أي علاقة كهذه.

والسؤال الثاني هو: يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى قد بعث الأنبياء في الأمم الأخرى أيضا، فأين مكان نزول وحيهم في رمضان؟ لا يوجد في رمضان مكان لوحي الأنبياء المبعوثين قبل إبراهيم -كنوح مثلاً- لكون الوحي قد نزل على

إبراهيم في أول رمضان، وليس هناك يوم قبل الأول من رمضان، كما لا يمكن أن يوجد مكان لنـــزول وحي كثير من الأنبياء الذين كانوا بعد إبـــراهيم، لأن أيـــام رمضان ليست إلا ٣٠ أو ٢٩، وقد نزل القرآنُ الكـــريم في الرابـــع أو الخـــامس والعشرين منه، فهؤلاء الأنبياء الباقون الكثيرون لا يمكن أن يجدوا أي يوم لنـــزول وحيهم قبل هذا التاريخ.

باختصار، لو أخذنا هذه الرواية بحرفيتها، فمفهومها مرفوض عقلا.

والآن هلمّ إلى الأدلة النقلية:

ورد في هذه الرواية أن هذه الكتب كلها نزلت في أيام معينة من رمضان دفعـــةً واحدة. لكن هذا باطل فيما يتعلق بالقرآن الكريم إذ لم ينـــزل في يوم واحد يقينًا، بل نزل تدريجيًا في ٢٣ سنة، حتى سجل الله تعالى قول الكفار ﴿لَوْلا نُـــزِّلَ عَلَيْـــهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾(الفرقـــان:٣٣).. أي أنهم يعترضون على عدم نزول القرآن مرة واحدة. لا شك أن ما يقولونه صـــحيح فلم ننـــزله مرة واحدة، لكن الحكمة في إنزاله التدريجي أننا نريد بـــذلك تثبيـــت فؤادك على الدوام، وذلك من خلال الإشارة في الوحي الجديد إلى الأنباء الـــسابقة عند تحقُّقها، كما جعلنا ترتيب القرآن رائعا، أي أنزلناه بترتيب يسهّل حفظه على المؤمنين كما يكون دعوةً رائعة للكافرين الموجودين زمن نـــــزوله، أمـــا ترتيبـــه التدويني فجعلناه بطريق آخر بحيث يسدّ حاجات القادمين. باختصار، هناك حِكَمٌ بالغة في أسلوب نـــزول القرآن وترتيبه سدًّا لحاجات أهل العصرين.

فمن ذا الذي يستطيع بعد هذه الشهادة التاريخية القول أن القرآن قد نزل في ليلة واحدة؟!

ثم إن الادعاء بأن كتب الأنبياء الآخرين نزلت دفعة واحدة مرفوض نظـــرًا إلى أحوالهم. إن تاريخ إبراهيم عليه السلام ليس أمامنا فلا نستطيع قول شيء فيـــه، ولكـــن تاريخ موسى وداود وعيسى -عليهم السلام- بين أيدينا، ولا يمكن لمن اطلع على كتبهم أن يدّعي أنها نزلت دفعة واحدة؟ فالتوراة مثلاً تحتوي على أحوال موســـى عليه السلام بكل تفاصيلها، فتذكر لنا الطرقَ والأسفار والأماكن والحـــروب بترتيبـــها

الزمني، وتخبرنا كيف قام موسى عليه السلام بتنظيم قومه، وكيف بلغ سن الكهولة بعد الشباب ثم صار عجوزًا حتى لم يقدر على الوقوف. هل يمكن أن تعتبر هذه الأمور كلها نزلت في ليلة واحدة؟

كذلك حال الأناجيل، فهي تتحدث عن رحلات المسيح عليه السلام ومواعظه وآياته وما أعطاه الله من هدي وإرشاد بحسب ترتيبها الزمني، ولا يمكن لأحد القول أن هذا الكتاب نزل في يوم واحد.

كذلك حال زبور داود عليه السلام، فهو يتحدث حينًا كيف حوصر داود بين الأعداء وكيف نجا منهم، وكيف مرض وشفي، وحينًا يذكر شرور أعدائه ثم نجاته من هذا الغم. فزبوره تاريخ لما وقع في حياته من أحداث وتقلبات، فهو يعكس وقائع حياته في الواقع، فكيف يصح القول أنه نزل في يوم واحد؟

الحقيقة أن حياة النبي لا يمكن فصلها عن وحيه، فبدون معرفة أحداث حياته لا يمكن معرفة تعاليمه جيدا. إن النبي بمنزلة مرآة لوحيه، ووحيه بمنزلة مرآة لحياته، وكلاهما يضيء الآخر ويوضحه، وبهذا الضوء المزدوج نفسه يهتدي العالم، ولذلك يستمر نزول الوحي على كل نبي لفترة طويلة مسلّطًا الضوء على مختلف أحوال حياته. إن نزول الوحي على النبي يلقي الضوء على التجلي الجديد لصفات الله من ناحية، ومن ناحية أخرى يذكر وقائعه المختلفة مع عدوه تدليلاً على نصرة الله وتأييده له، ومن ناحية ثالثة يلقي الضوء على إيمان النبي ويقينه في شتى الظروف الحرجة تدليلاً على صدقه وأمانته وإيثاره وغير ذلك من كمالاته الروحانية الأخرى. أما لو نزل عليه الوحي كله في البداية في ليلة واحدة، فكيف يمكن أن تجتمع كل هذه الأمور في وحيه؟ وإذا لم تجتمع في وحيه، فكيف يمكن أن يكون سببًا لهداية الناس ورشدهم؟ فثبت أنه لا بد أن ينزل الوحي على جميع الأنبياء تدريجيًا بحيث يلقي الضوء على جميع مراحل رفعته الروحانية التي مرّ بها خلال رحلة نبوته، لكي تكون بداية حياته ووسطها ونهايتها أمام العالم.

الواقع أن فكرة نزول الوحي على الأنبياء السابقين دفعة واحدة إنما نشأت من فهم خاطئ لقوله تعالى ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ

فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾(الفرقان:٣٣)، فظن المفسرون خطأً لعل جميع الأنبياء قد نزل عليهم الوحي جملة واحدة، لذلك اعترض الكافرون على عدم نزول الوحي على محمد ﷺ مرة واحدة. (معالم التنزيل)

إنهم لم يفكّروا أن القرآن ينقل هذا الاعتراض على لسان كفار مكة الذين لم يكونوا يؤمنون بكتاب سماوي ولا وحي، دعك أن يقولوا أن كل الكتب السابقة نزلت مرة واحدة. لو كان هذا الاعتراض موجَّهًا مِن قبل اليهود والنصارى لكانت هناك إمكانية لهذه الشبهة، لكنهم لم يثيروه، فباطلٌ تمامًا استنتاجُ المفسرين بأن الوحي قبل القرآن كان ينزل دفعة واحدة لذلك اعترض الكفار على عدم نزول القرآن دفعة واحدة. كلا، بل كان أساس اعتراضهم العقل فقط، إذ كانوا يظنون أنه لو كان الله هو مَن أنزل هذا الوحي لأنزله مرة واحدة، لأنه عالم الغيب، فنزول القرآن بالتدريج يعني أن محمدا هو الذي يختلق من عنده كلامًا جديدا بحسب الأحداث المتطورة والحاجات المستجدة ويعرضه على الناس. فلأن أساس اعتراضهم ظني، فلا يمكن أن يُستنتج من ذلك أن وحي الأنبياء السابقين كان ينزل دفعة واحدة.

ولو افترضنا أن أهل مكة كانوا يقولون أن وحي الأنبياء السابقين نزل دفعة واحدة، فأيضًا لا قيمة لقولهم، إذ لم يكونوا علماء العلوم السماوية ولا تاريخ الأديان حتى يكون لاعتراضهم وزن وقيمة.

وهناك سبب آخر لنشوء هذا الفهم الخاطئ، وهو أن القرآن الكريم يقول عن موسى عليه السلام أنه أوتيَ الألواح في موعد أربعين ليلة (الأعراف:١٤٣)، وحيث إن المفسرين لم يكونوا مطلعين على الكتب الإسرائيلية، فظنوا أن الألواح والتوراة شيء واحد، مع أن الألواح اسم لعشر وصايا فقط، أما التوراة فتحتوي على أحكام تزيد على أحكام الألواح مئات الأضعاف. إن القرآن الكريم لم يذكر قط أن موسى عليه السلام أُعطيَ التوراة على الطور بشكل كامل، وإنما يذكر الألواح فقط، وهذا ما تؤكده التوراة أيضًا، لذا فأولاً: لم ينزل ما نزل على موسى عليه السلام على الطور دفعة واحد، بل في أربعين ليلة، وثانيًا: الوحي الذي نزل عليه هناك في تلك

الفترة قد نزل على الرسول ﷺ مثلُه حجمًا في مرات كثيرة، إذ نـــزلت عليه آيات وآيات دفعةً واحدة، فقد ورد عن سورة يوسف أنها كلها نزلت دفعة واحدة (فتح البيان)، وهي بلا شكٍ أكبرُ حجمًا مما نزل على موسى على الطور في أربعين ليلة.

أما الأنبياء الآخرون فليس هناك رواية قوية أو ضعيفة تقول إن وحيهم نزل دفعة واحدة. ولو كانت رفضناها باعتبارها خلافا للعقل، لأن وحي الله تعـــالى يلقـــي الضوء على ما يوجد بين الله والنبي من صلة، فكيف يمكن أن نتصور أن الله تعالى ينـــزل كل كلامه على نبيه في ليلة واحدة ثم يلزم الصمت؟

إن الوحي يكون شهادةً على علاقة النبي مع الله تعالى، فكيف يمكن أن يـــنعم بالاطمئنان بمجرد وجود هذه الشهادة مرة؟ وهل ينعم النبي بالراحة وحبيبه محجوب عنه؟ ألا ترى كيف صارت حالة النبي ﷺ عندما فتر عنه الـــوحي بـــضعة أيـــام؟ وعندي أن الله تعالى لو كلّم أنبياءه يومًا ثم لزم الصمت بقية عمرهم، لقَتَلَهم بفعله هذا وإنْ لم يتمكن أعداؤهم من قتلهم.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وغيرها من الآيـــات الـــتي ذكرتُها آنفًا لا تعني أبدًا أن القرآن الكريم نزل كله في ليلة واحدة، أو أن الله تعالى ينـــزل وحيه على الأنبياء مرة واحدة. كلا، لم ينـــزل الوحي على أي نبي دفعـــة واحدة، بل ينـــزل عليه منذ بعثته إلى موته تدريجيًا، لكي يزداد قلبه نورًا، ويـــزداد أتباعه إيمانًا ونورًا، ولِتُقامَ على المنكرين حجة تلو الحجة.

وهنا ينشأ سؤال: إذا كان الوحي لا ينـــزل دفعة واحدة، فهل باطلٌ ما ورد في الروايات أن الوحي قد نزل على الرسول ﷺ إجمالا وعلى الأنبياء السابقين تفصيلا في مختلف ليالي رمضان؟

أما الجواب فأولاً: إن هذه الروايات لم ترِدْ في الصحاح الست، بل هي مرويـــة في مسند أحمد وسعيد بن جبير وابن مردويه، وليست رواياتها كروايات البخـــاري ومسلم. لا شك أن مسند أحمد موثوق به، لكن من الثابـــت أن رواياتـــه علـــى درجات مختلفة من الصحة، وقد دخلت في المسند – عن طريق رواته – رواياتٌ كثيرة لم يذكرها الإمام أحمد، وبعضها ليست موثوقا بها عند الإمام أحمد نفـــسه.

وحتى لو كانت هذه الرواية موثوقًا بها عند الإمام أحمد، فإنها لا تبلغ مرتبةَ القرآن الكريم. والحديث الذي يخالف القرآن الكريم والواقعَ أو العقلَ لا بد من اعتباره باطلاً أو مجازًا. وقد أثبتُّ من قبل أن الأخذ بظاهر هذه الروايات يتنافى مع القرآن الكريم والصحف السابقة والعقل، فلا بد من اعتبارها باطلة أو من قبيل المجاز والاستعارة.

والآن هلمّ نرَ هل يمكن شرح هذه الأحاديث باعتبارها مجازًا واستعارة؟

أرى أن في هذه الروايات ما يدعونا لاعتبارها مجازًا، وهو أن القرآن الكريم اعتبر نوحًا نبيًا عظيما وإبراهيم نبيًا تابعًا له، وأخبر بمجيء نبي في كل قوم، بينما لا تذكر هذه الرواية إلا إبراهيم وموسى وداود والمسيح والرسول عليهم السلام. ثم إن العقيدة الشائعة بين المسلمين عمومًا هي أن الله تعالى قد أنزل أربعة كتب – علمًا أن الاعتقاد بأن الله تعالى قد أنزل لهداية شتى الشعوب أربعة كتب فقط ليس صحيحًا، كلا بل قد أنزل أكثر منها بكثير وكثير، كما لا يصح اعتبار كتابَي داود والمسيح كتبَ شرائع، لأن الزبور والإنجيل ليسا وحيَ شريعة، إنما هما من قبيل الوحي الذي يساعد على الإصلاح والرقي الروحاني أو يحتوي على نبوءات- ولكن تلك الروايات تذكر خمسة كتب سماوية فقط، مما يعني أنها مروية بدون أيّ تأثُّرٍ من هذه العقيدة الشائعة الخاطئة، لذا فمن الأغلب أن تكون تلك الروايات صحيحة، بيد أنها لا تؤخذ على الظاهر بل تؤخذ على أنها استعارة ومجاز.

ليكن معلوما أن إبراهيم وموسى وداود والمسيح والنبي – عليهم السلام أجمعين- كلهم نجوم متلألئة من الأسرة الإبراهيمية. مما لا شك فيه أن إبراهيم جاء قبل وجود الأمة الموسوية وكان تابعًا لنوح، وأن موسى وداود والمسيح كانوا أنبياء السلسلة الموسوية، وأن النبي ﷺ كان مؤسس الأمة الإسلامية، وأن هؤلاء الأنبياء ينتمون إلى ثلاث أمم مختلفة من حيث النبوة، أما من حيث الأصل والأسرة فكلهم ينتمون إلى أسرة واحدة؛ الأسرةِ الإبراهيمية، لذا فقد تكون هذه الرواية لا تتحدث عن هؤلاء الأنبياء من حيث نزول الوحي عليهم، وإنما تشير إلى أمر هام من حيث كونهم من الأسرة الإبراهيمية. وإذا كان الأمر كذلك فما كان هناك داع لذكر نوح ولا أنبياء الشعوب الأخرى في هذه الرواية. وهذا ما نجد فيها.

والسؤال الآن: هل بدأ نـــزول الوحي على هؤلاء الأنبياء الخمسة –سواء كل ما نزل عليه من الوحي أو بعضه– في رمضان؟ ولقد فنّدتُ هذه الفكرة من قبـــل بالتفصيل. فثبت أنه ليس المراد من رمضان هنا هذا الشهر المعروف، بل أُطلق مجازًا على عصر معين من عصور نزول الوحي.

واعلم أن الرمضان من الرَّمَض، وهو الحرّ الشديد أو حرارة الشمس الشديدة. والرَّمضاء: الأرض الحامية من شدة حرّ الشمس.. قال الشاعر:

المستجيرُ بعَمْرٍو عند كُرْبتِهِ كالمستجير من الرمضاء بالنارِ (الأقرب).

ويبدو أن هذا الاسم أُطلق على هذا الشهر في أيام حر شديد. لقد فُرض الصيام في شهر رمضان في الإسلام، أما اسم رمضان فقديم جدًّا، وقد سمّي بهذا الاسم لشدة الحر فيه آنذاك. والوحي أيضًا ينـــزل دائمًا من عند الله تعالى عندما يكون النـــاس يحترقون في نار غضبه تعالى نتيجة إثمهم وفسقهم وفجورهم، وإشارةً إلى الأمر نفسه قد قال النبي ﷺ في هذه الرواية – قيد البحث – أنه عندما جاء أول زمـــن للحـــرّ الروحاني في أسرة إبراهيم أنزل الله عليه وحيه، ولما جاء عصر الحرّ الروحاني الثـــاني بَعَثَ موسى، وحين جاءت فترة الحرّ الروحاني الثالثة أرسلَ داودَ، وعند الفترة الرابعة بعث المسيحَ، وعند الفترة الخامسة بَعَثَني أنا. وبهذا التأويل تصبح هذه الرواية موعظةً ودرسًا للناس من حيث أحوال هذه الأزمان، وليس معناها أن وحي الله نزل علـــى هؤلاء الأنبياء الخمسة في رمضان، اللهم إلا على محمد ﷺ إذ توجد هناك شـــهادة تاريخية قوية أن بداية نزول القرآن على النبي ﷺ كانت في رمضان.

وعلى ضوء هذا المعنى المجازي نفهم من هذه الرواية أمرًا آخر، وهـــو أن هـــذه الرواية لا تقول أن الوحي نزل على هؤلاء الأنبياء بتواريخ متتابعة متواترة، بل تقول إنه نزل على إبراهيم عليه السلام في أول رمضان، وعلى موسى عليه السلام في السادس منـــه، وعلى داود عليه السلام في الثاني عشر منه، وعلى المسيح عليه السلام في الثامن عشر منه، وعلى رسولنا ﷺ في الرابع والعشرين منه. والتدبر في الأمر يكشف أن هذه التواريخ تتفق مع القرون التي ظهر فيها هؤلاء الأنبياء من الأسرة الإبراهيمية. لما كـــان إبـــراهيم عليه السلام أول الأنبياء من هذه الأسرة، فيصح القول إن الوحي نزل عليه في أول قـــرن

من تاريخ السلسلة الإبراهيمية. أما موسى عليه السلام فهناك خلاف حول زمنه، فوفقًا للكتاب المقدس الحالي كان زمن موسى سنة ٤٢٠ بعد إبراهيم، لكن بعض الروايات الإسرائيلية تقول إن زمنه القرن السادس بعد إبراهيم، وإذا صحّ هذا فثبت أن الوحي قد نزل عليه في السادس من رمضان.

ثم تذكر هذه الروايات أن الوحي نزل على داود عليه السلام في الثاني عشر من رمضان. والحق أن داود ليس ذا أهمية في هذه السلسلة، لأن أهمّ شخصياتها هم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، لأن إبراهيم هو الأب، وأما موسى وعيسى فهما من نسل أحد ابنيه، وأما محمد والمسيح الموعود فهُما من نسل ابنه الآخر. كما أن رواية مسند أحمد لا تذكر داود. ومهما يكن من أمر فإن ما ورد في الرواية الأخرى بأن الوحي نزل على داود في الثاني عشر من رمضان لا يبدو صحيحا بحسب التاريخ المتداول، إذ إن زمن داود هو القرن التاسع بعد إبراهيم طبقًا للتاريخ المتداول. غير أننا لا يمكن أن نثق بالتواريخ القديمة كل الثقة إذ قد يكون فيها خطأ، وقد يكون داود بعد إبراهيم بأحد عشر قرنا، أي يكون قد بُعث في القرن الثاني عشر.

ثم تذكر هذه الرواية أن الوحي نزل على المسيح عليه السلام في الثامن عشر من رمضان، ويذكر الكتاب المقدس أن حادثة الصليب وقعت بعد بعثة إبراهيم بـ ١٩٢٠ سنة وبعد وفاته بحوالي ١٨٠٠ سنة، وهذا يعني أن هناك فارقًا ما بين ١٠٠ إلى ١٥٠ سنة، ولكن هذا الفرق يزول حيث إن التاريخ الإسرائيلي يؤكد أن الفارق الزمني بين موسى وعيسى هو ١٣٠٠ سنة، ولو سلّمنا بهذه المدة -وهذا ما تؤكده القرائن إلا أن المجال لا يسمح بالخوض في هذا الموضوع- فيصبح الفاصل الزمني بين إبراهيم والمسيح حوالي ١٨٠٠ سنة، وهكذا تصبح بعثة المسيح مطابقة تمامًا القرن الثامن عشر، أي في اليوم الثامن عشر من رمضان مجازًا، كما ورد في الحديث.

ثم ورد في هذه الرواية أن الوحي نزل على رسولنا ﷺ في الرابع والعشرين من رمضان، والفاصل الزمني بين عيسى ورسولنا ﷺ هو ٦٠٨ سنة. ولو جمعنا ٦٠٨ مع ١٨٠٠ سنة -وهو الفاصل الزمني بين إبراهيم والمسيح- فالناتج ٢٤٠٠ وبضع

سنين.. أي أنه ﷺ بُعث بعد إبراهيم عند انتهاء القرن الرابع والعشرين وفي بداية القرن الخامس والعشرين، وهذا الزمن مطابق لما جاء في هذه الرواية أن الوحي نزل على رسولنا ﷺ في الرابع والعشرين من رمضان.

باختصار، إن المراد من رمضان في هذه الرواية هو ذلك الزمن المظلم الذي كان سيأتي على نسل إبراهيم، والمراد من الأيام هنا تلك القرون التي ظهر فيها هؤلاء الأنبياء. فهذه الأحاديث قد وردت بلغة الاستعارة، والأخذ بظاهر مفهومها يخالف العقل والنقل.

المراد من ليلة القدر

أما السؤال: ما هو المراد من ليلة القدر في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾؟ أهي ليلة حقيقية أم مجازية؟ فهناك خلاف بين المفسرين، فالأوائل ذهبوا إلى أنها ليلة حقيقية، وقد نزل فيها القرآن كله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة.. أو أن نزوله بدأ في هذه الليلة. (فتح البيان)

وفيما يتعلق ببداية نزول القرآن في رمضان فهو أمرٌ يقينٌ طبقًا لشهادات التاريخ. فلا غرو أن من معاني قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ نزوله في رمضان. أما في أي ليلة بدأ نزوله، فهناك اختلاف بصدده، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن القرآن بدأ نزوله في النصف من رمضان (ابن كثير).. أي في الخامس عشر أو السادس عشر، أما الروايات التي مر ذكرها قبل قليل فيتضح منها أن نزوله بدأ في الرابع والعشرين من رمضان. ويرى البعض أن نزوله بدأ في ١٧ رمضان، لأن غزوة بدر كانت في ١٧ رمضان (الدر المنثور)، فهم يرون أن قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾(الأنفال:٤٢) يشير إلى هذا.

باختصار، هناك اختلاف حول هذه الليلة التي تسمى ليلة القدر. والحق أن تحديدها ليس ذا أهمية حقيقية إلا من حيث البحث التاريخي؛ إذ ليس في معرفة يوم نزول القرآن أي فائدة روحانية. إن عامة المحدِّثين يقدِّمون الرواية التي تقول أن

نـــزوله بدأ في الرابع والعشرين من رمضان؛ ومنهم ابن حجر العسقلاني صاحب شرح البخاري والعلامة الزرقاني شارح سيرة النبي ﷺ "المواهـــب اللَدُنّيّـــة" في ٨ مجلدات، بينما يفضّل المؤرخون الرواية القائلة بنـــزوله في ١٧ رمـــضان. (شـــرح الزرقاني المجلد ١ ص ٢٢١: الباب الأول فيما كان يخص ﷺ بـــه رمـــضان مـــن العبادات، وفتح الباري: حديث رقم ٤٩٧٨، وابن كثير)

الحق أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ثم تحديدَ الرسول ﷺ ليلةَ القدر في العشر الأواخر من رمضان تذكارًا لقول الله هذا كلاهما يؤكـــد أن نـــــزول القرآن بدأ في رمضان حتمًا؛ وعليه فلو قلنا إن الليلة التي بدأ نـــزول القرآن فيهـــا هي ليلة القدر فلا بد من التسليم أيضًا بقول المحدِّثين إن ليلة القدر هـــي الرابعـــة والعشرون من رمضان، وسيكون المراد من هذه الآية أننا بدأنا إنـــزال القـــرآن في الليلة الرابعة والعشرين من رمضان والتي تُسمّى ليلة القدر بسبب نـــزوله فيها.

أما التحقيق التاريخي فيؤكد فقط أن نـــزول القرآن بدأ في ليلة من ليالي رمضان من دون تحديد.

أما السؤال: لماذا تُسمَّى هذه الليلة التي نزل فيها القرآن ليلة القـــدر؟ فجوابـــه موجود في لفظ القدر. لقد سبق أن ذكرنا معنى القدر لدى شرح الكلمات، غـــير أني أسجّل هنا معانيه مرة أخرى إنعاشًا للذاكرة مِن مصدرين أحدهما: تفسير لغوي للقرآن الكريم والثاني أحد أهمّ قواميس اللغة العربية.

فقد ورد في المفردات للراغب وهو قاموس قيم للقرآن الكريم:

"القدر والتقدير: تبيينُ كميةِ الشيء. وتقديرُ الله الأشياءَ على وجهين: أحـــدهما بإعطاء القدرة، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص، حـــسبما اقتضت الحكمةُ، وذلك أن فِعل الله تعالى ضربان: ضربٌ أوجدَه بالفعل، ومعـــنى إيجاده بالفعل أن أبدعَه كاملا دفعةً واحدة لا تعتريه الزيادة والنقصان، إلى أن يشاء أن يفنيه أو يبدّله كالسماوات وما فيها. ومنها ما جعَل أصوله موجـــودةً بالفعـــل وأجزاءَه بالقوة، وقدّره على وجهٍ لا يتأتى منه غيرُ ما قدّره فيه، كتقديره في النواة أن ينبت منه النخلُ دون التفاحِ والزيتون، فتقدير الله على وجهين: أحدهما بالحُكم

منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا، إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الإمكان، وعلى ذلك قوله ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، والثاني بإعطاء القدرة عليه..... فقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي ليلة قيّضناها لأمور مخصوصة."

فقوله تعالى ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يعني أنه لن يظهر من ذلك الشيء إلا خواصه الإيجابية التي أودعها الله إياه، وأما ما نفى الله عنه فلن يظهر منه. فمثلا إن اللسان لا بد أن يفرّق بين الحلو والمرّ، ولكنه لن يسمع أبدًا، والأذن ستسمع حتمًا مهما قلت لها ألا تسمع، ولكنها لن تتذوّق شيئًا مهما قلت لها أن تتذوّق.

والطريق الثاني لظهور قدرة الله تعالى أنه قد خلق في بعض الأشياء قدرةً، ولكنها لا تظهر فورًا بل تظهر في وقتها. فكأنما قدرة الله هي نوعان: أحدهما بمثابة أشجار وثانيهما بمثابة نوًى؛ فأشجار القدرة تؤتي أُكلها منذ البداية بكل روعتها وعظمتها دونما نقصان، أما نواة القدرة فتكمن فيها قوة خفية، فإذا زُرعتْ ظهر منها ما أودعها الله تعالى، ولكنك إذا لم تزرعها، ما ظهر قدر الله. بتعبير آخر إن هذا النوع من قدر الله لا يظهر بالضرورة، ولكن إذا ظهر ظهر كما قُدّر له أن يظهر. فمثلاً إن نطفة الإنسان فيها القدرة على أن تصبح إنسانا، لكن ليس ضروريا أن تصبح كل نطفة طفلا، فكم من نطفةٍ تضيع قبل دخولها في الرحم، وكم منها تقذفها الأرحام قبل الأوان، وكم مِن جنينٍ يولد ميتًا أو مشوّهًا، غير أن النطفة التي تصبح طفلاً لا بد أن تحمل ما أودَعَها الله من خواص إنسانية ولن تحمل أية خواص غير إنسانية. كأن هذا النوع من التقدير لا يكون محددا في نقطة محددة، بل يكون محددًا في نطاق محدد يمكن أن يتقدم فيه أو يتأخر.

لقد تبين من عبارة "المفردات" هذه أن القدر يعني إظهار القدرة، وهذا الإظهار يتم بطريقتين: أولاهما بالتقدير الذي يظهر في شكل مخصوص لا نقص فيه ولا زيادة، وقد ضرب صاحب المفردات لذلك مثال السماوات والأرض، وهو مثال ناقص غير أنه يعطينا بعض الفهم لهذا التقدير. والمثال الحقيقي على هذا النوع من القدر هو ذلك الذي يتعلق بصفات الله تعالى والذي يسمى قانون الطبيعة.. أي ذلك القانون الذي سنّه الله تعالى لإظهار صفاته، فمثلا إن الموتى لا يرجعون إلى

هذه الدنيا أحياءً بجسدهم المادي ، أو أن علم الغيب الكامل لا يتيسر لأحد إلا إذا أعطاه الله إياه. يمكن أن يصيب المرء في رجمه بالغيب، ولكن لا يمكن أن يعرف علم الغيب الكامل من دون أن يعلِّمه الله تعالى.

والطريقة الثانية هي إظهار تقديره بالإجمال، حيث لا يكشف قدرته دفعةً واحدة بل يكشفها بالتدريج وحسب قانون محدد.

ثم يقول صاحب المفردات إن قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني أنا أنزلناه في ليلة خصَّصْناها لأمور مخصوصة.

والآن أفسر هذه الآية بناءً على هذين المعنيين:

المعنى الأول هو أن لفظ القدر إشارة إلى أحد نوعَي القدرة الإلهية.

وليكن معلومًا أن لفظ القدر يشير بلا شك إلى قدرة الله بنوعيها، ولكن هذا لا يعني أنه إشارة إلى أحد نوعيها دون الآخر. لا شك أنه يشير إلى أحدهما حتمًا، ومن الممكن أيضا أن يشير إلى كلا النوعين معًا، فعندما نقول إن الله قدير، فهذا لا يعني أن النوع الأول من قدرته يظهر دون الآخر، كلا بل المراد أن القدرة الإلهية بنوعيها تظهر. كذلك إذا وردت كلمة القدر فلا شك أنه يراد به حينًا النوع الأول من القدرة أو النوع الثاني أو الثالث أو الرابع، لكن يراد به حينًا كل أنواع القدر في وقت واحد. وهذا هو المعنى الذي ينطبق هنا. و"ال" التعريف في ﴿القدر﴾ استغراقية، أي أن كل أنواع القدر قد اجتمعت في هذه الليلة. لقد ذكر الراغب هنا نوعين من القدر، والحق أن كلا من هذين النوعين ينقسم بعد ذلك إلى نوعين آخرين، أي القدر الأول الروحاني والقدر الأول الجسماني، ثم القدر الثاني الروحاني ثم القدر الثاني الجسماني، وهكذا تصبح هذه أنواعًا كثيرة، وقد أُشير بلفظ ﴿القدر﴾ المعرَّف بـ"ال" بأن هذه الليلة التي نزل فيها القرآن تجمع كل أنواع القدر، وصارت مجموعة الأقدار كلها.

كما قال صاحب المفردات إن القدر ينقسم إلى قسمين: قسم يظهر دفعة واحدة وبصورة كاملة، وقسم آخر يظهر إجمالاً وتدريجيا، ثم إن هذين النوعين ينقسمان مرة أخرى إلى مادي وروحاني، ونظرًا إلى هذا المعنى سيعني قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ

فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أننا قد جمعنا في الليلة التي نزل فيها القرآن هذه الأنواع الأربعة من القدر.. أي القدر المادي الذي يظهر كاملاً دفعةً واحدة، والقدر الروحاني الذي يظهر كاملاً دفعةً واحدة، والقدر المادي الذي يظهر إجمالاً وبالتدريج، والقدر الروحاني الذي يظهر إجمالاً وبالتدريج.

ولنأخذ الآن كلاً من هذه الأقدار لنرى هل كانت هذه الأقدار موجودة في ليلة نزول القرآن أم لا.

ومثال القدر المادي الذي يظهر كاملا وبدفعة واحدة كمثال خلق الشمس والقمر، حيث خُلقا منذ أول يوم لهدف معين، ويعملان بوتيرة واحدة إلى أن يشاء الله. ويشابه هذا القدر شخصية الرسول ﷺ حيث قال الله تعالى له ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٦-٤٧). لقد بيّن الله تعالى هنا أن من صفات النبي ﷺ أنه يماثل الشمس، أي أن بعض صفاته خُلقت منذ أول يوم كاملةً، وأن ظهورها قد اكتمل بولادته الروحانية منذ أول يوم. وما هي تلك الصفات؟ لقد أُشير إليها هنا بكلمة الشمس. ذلك أن للشمس صفتين مميزتين من حيث خلقها؟ أُولاهما: أن أجرامها كلها تدور حولها، وثانيتهما: أنها تضيء الأجرام الدائرة حولها إذا جاءت مقابلها. وينبغي اعتبار صفتها الأولى ماديةً، وصفتها الثانية روحانيةً، لأن الصفة الروحانية إنما تظهر نتيجة التعلق الشديد. فمثلاً إن نصرة الله المادية تظهر بحق كل مسلم وكافر، لكن لا يحظى بنصرة الله الروحانية إلا من يضع روحه وقلبه أمام نوره ﷻ. ولقد ظهرت كل من هاتين القدرتين المادية والروحانية منذ اليوم الذي بدأ فيه نزول القرآن، فبمجرد أن نزل أول وحي على الرسول ﷺ فقد جُعل شمسًا للإنسانية وفُرض على الناس أن يطوفوا حوله. لا شك أن النبي ﷺ لم يزل يتطور روحانيًا ولن يزال، ولكن فيما يتعلق بطواف كل الأجرام الروحانية حوله فلم يتغير أي شيء، بل كان الإيمان ضروريا بالنبي ﷺ في الليلة التي نزل عليه الوحي فيها بقدر ما كان ضروريًا في آخر لحظة من حياته ﷺ. فمن أراد أن يرث فضل الله تعالى لا بد له من الطواف حوله ﷺ، إذ أصبح منذ لحظة بعثته بمنزلة الشمس

للدنيا، وصار مدارًا لنظام العالم كله. والعلامة الظاهرة التي جعلها الله تعالى دليلا على ذلك هي أنه عصم النبي ﷺ من مكائد الناس منذ نزول أول وحي عليه، شأن الشمس التي لا يمكن أن يفنيها غير الله. فقد بذل الأعداء كل ما في وسعهم لقتله ﷺ منذ بداية بعثته إلى آخرها وكادوا به كيدًا، ولكنهم لم يستطيعوا أن يضروه شيئا، إذ كان كالشمس التي لا يقدر على إفنائها أحد.

والنوع الثاني من القدرة الأولى التي تظهر ظهورًا كاملاً ودفعةً واحدةً هو روحاني. وقد قلتُ إن إضاءة الشمس مشابهة للظهور الروحاني، إذ لا ينتفع من ضوئها إلا مَن يقابلها، والأمور الروحانية هي التي لا ينتفع منها كل شخص، إنما ينتفع منها من يرغب فيها فقط. هذا النوع من القدرة أيضا قد وُجد في النبي ﷺ بشكل كامل، فمنذ لحظة نزول الوحي عليه قد أُعطيَ القدرة على إيصال فيوضه الروحانية إلى الآخرين. إن الشمس قادرة على الإضاءة، وهي تضيء العالم باستمرار دون نقص أو زيادة منذ خلقها، فضوؤها هو هو كما كان منذ أول يوم، ولكن لا ينتفع من ضوء الشمس إلا من يفتح أبواب بيته ليدخل ضوءها فيه، كذلك فإن النبي ﷺ قد أعطاه الله تعالى القدرة على إيصال نور الروحانية منذ أول يوم من بعثته، وهذه القدرة لا تنقص ولا تزيد، ولم يحدث أنْ كان هذا الفيض قليلا في البداية ثم ازداد، إنما الفرق في المستنير من نوره، فكما أن البيوت التي أبوابها واسعة يدخل فيها ضوء الشمس أكثر، والبيوت التي أبوابها ضيقة يصل إليها ضوء أقل، كذلك فمن وسّع صدره لتلقّي فيوض النبي ﷺ نال من بركة فيوضه نصيبًا أكبر، ومن ضيّق صدره نال منها نصيبًا أقل. ولكن فيما يتعلق بقدرة إفاضته فهي كما كانت منذ أول يوم وستبقى كذلك إلى يوم القيامة.

باختصار، منذ الليلة التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ ظهرت فيه على الفور القدرةُ الكاملة التي تظهر فجأةً، وظهرت بنوعيها المادي والروحاني ظهورًا كاملا لا مثيل له.

والنوع الثاني من القدرة ما يكون كالبذر الذي ينبت شيئا فشيئا. وقد تجلت هذه القدرة بنوعيها المادي والروحاني في النبي ﷺ في ليلة نزول القرآن عليه. فمما نزل

عليه من الوحي في تلك الليلة قول الله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ومن معانيه أن الله تعالى لم يخلق الإنسان دفعة واحدة، بل كان في البداية قطعة صغيرة من الدم، ثم تطور وبلغ ذروة الكمال، وهكذا سيتم رقي الإسلام أيضا ماديا وروحانيا.

وبالفعل نرى أن نواة الإسلام التي بدأت منذ أول يوم في سورة العلق لم تزل تنمو وتزدهر حتى أخذت صورة شجرة القرآن الكريم، الذي هو في الحقيقة ذروة ارتقائها المادي. وأي شك في أن القرآن الكريم شرحٌ لهذه الآيات البضع التي نزلت عليه ﷺ في أول ليلة من الوحي؟

تُقدِّم هذه الآيات خلاصة تعاليم القرآن الكريم بشكل رائع! فقوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يعني اكشفْ للناس صفاتِ الله التي قد تجلّتْ عليك حتى الآن، لأن تجلّي صفاته الذي تم عليك هو الصحيح، أما ما سواه من شروح لصفاته فباطلة.

ثم قال ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾.. أي الذي خلق كل المخلوقات، فلذا هو المتصرف والغالب عليها. بمعنى أن إعلانك التوحيدَ سوف يؤدي إلى معارضة الدنيا، ولكن لا داعي للقلق، لأن كل الخلائق هي في قبضة الله تعالى، فما دمت تطيع خالقك فكيف يمكن أن تضرك مخلوقاته؟

ثم قال الله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.. أي لا شك أن الناس سوف يستغربون من أقوالك ويستاءون منها كثيرا، ولكن تذكّرْ أن الله تعالى قد خلق في الإنسان رغبة خفية للقاء الله وللبرّ ببني جنسه، فرغم أنهم يعادونك في البداية ويظلمون الضعفاء ويعرضون عن الله تعالى، إلا أنهم سينصلحون تدريجيا، ويتصالحون مع الله أيضا وتتحسن علاقتهم مع بني جنسهم.

ثم قال تعالى ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي: نعم، اقرأْ بعون ربك الذي هو أكرم الأكرمين، بمعنى أنَّ نَشْرَكَ لهذا التعليم سيعرّضك للمعارضة حتمًا لا سيما من قبل أصحاب الزعامة الدينية والدنيوية، فلا تكترثْ لهم، لأن الله الذي هو أعزّ مِن كل عزيز هو معك، وقد قرر الآن أن يبلّغ الإنسانَ ذروة ارتقائه، ويعلّمه العلوم بالقلم لا باللسان، بمعنى أن

استعمال القلم سيزداد الآن لحفظ العلوم والمعارف، وأنه تعالى سيعلِّم الناسَ من العلوم المادية والروحانية ما لم يطّلعوا عليه من قبل.

فكِّروا، أليس القرآن الكريم تفسيرا لهذه الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في تلك الليلة؟ ما هو القرآن؟ إنه منهج يعلّم الإنسان كيف ينشئ العلاقات السليمة مع الله تعالى ومع عباده. وقد تضمّنت هذه الآيات هذين الأمرين إجمالاً، كما أشارت إلى أنها بمثابة النطفة في حالتها البدائية في رحم الأم، وأنّ فحواها سوف يزداد كنطفة ويزدهر حتى يصبح طفلاً ثم رجلاً كاملاً عالمًا فاضلا يصبح مرجعًا للعلوم والمعارف مستعينًا بالقلم. باختصار، لقد أشار الله تعالى هنا إلى أمريْن؛ أحدهما: أن هذه الآيات من القرآن ستنمو حتى تصبح كتابا كاملا، والثاني أنه بمساعدة هذا الكتاب سينمو الإنسان ويرتقي من حالة العلقة إلى الإنسان الكامل، فاكتمال القرآن إشارةٌ إلى ظهور القدرة المادية، واكتمال روحانية الناس إشارةٌ إلى ظهور القدرة الروحانية، وليس هذان النوعان من القدرة مما يظهر فجأةً ويكتمل، بل لم يزل القرآن بعد بداية نزوله يزداد شيئًا فشيئًا حتى اكتمل، كما أن الذين يقرأونه الآن أيضًا إنما يقرأونه شيئا فشيئا، فإنه لم ينزل دفعة واحدة في أول مرة، كما لا يطّلع على معارفه أحد دفعة واحدة. كذلك فرغم أن الترقيات الروحانية التي ينالها الإنسان عن طريق الإسلام مبنية على نفس الرسالة التي نزلت على محمد في أول ليلة، إلا أنها تزداد بحسب الإيمان تدريجيا، وهكذا تصبح مثالاً للظهور الروحاني للنوع الثاني من القدرة.

وقال صاحب المفردات بعد ذلك في بيان القَدَر إن الله تعالى قد أنزل هذا القرآن في ليلة قيّضها سلفًا لظهور قدراته تعالى الخاصة. وهذا المعنى أيضا صحيح، لأن أخبار عصر الرسول ﷺ مذكورة بكثرة في الكتب السابقة، حيث ذكر الله تعالى علامات وآثار زمانه ﷺ على لسان الأنبياء السابقين، وقد نزل القرآن وفقًا لتلك الأنباء والعلامات. وكأن الله تعالى يقول هنا: قد أنزلنا القرآن في زمن قد أخبر الأنبياء السابقون بنزوله فيه، فلماذا تترددون في تصديقه والإيمان به؟ فما دام هذا الزمن هو نفس الزمن الذي كان سيأتي فيه النبي الموعود وتنزل فيه الشريعة

الموعودة، ومع ذلك تقولون أن هذا النبي متقول على الله، وأن كتابه افتراء عليه سبحانه، فأخبِرونا أين النبي الموعود الحق؟ وأين الشريعة الموعودة الحقة؟ وإذا قلتم لا وجود لهما في أي مكان، فاعلموا أنكم لا تكفرون بمحمد فحسب، بل تكفُرون بأنبيائكم أيضًا، لأنهم أخبروا عن بعثة نبي ونزول شريعة في هذا العصر. إذا كان هذا النبي كاذبا ولا يوجد أي موعود صادق، فكتبكم كاذبة وأنبياؤكم أيضا كاذبون.

أما قاموس "أقرب الموارد" فقد ورد فيه في بيان معاني القدَر: الشيءُ المماثل، يقال هذا قدرُ هذا، أي مماثل له؛ الحُرمةُ؛ الوقارُ؛ الغنى؛ القوةُ؛ السهولةُ. (الأقرب).

وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني:

١- إنا أنزلنا القرآن في ليلة مساوية في القيمة والقدر

٢- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات حرمة

٣- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات وقار

٤- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات غنًى

٥- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات قوة

٦- إنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات سهولة

والآن نرى هل هذه المعاني الستّة تنطبق على القرآن الكريم أم لا.

المعنى الأول هو أننا أنزلنا القرآن في ليلة مساوية في القيمة والقدر. وحيث إن الشيء الذي تساويه هذه الليلة قدرًا غير مذكور، فلا يمكن أن نحدّده، بل سنفسر الآية بأننا أنزلنا القرآن في ليلة تساوي سائرَ الليالي قدرًا وقيمة، بمعنى أن هذه الليلة تساوي عمر الدنيا كلها قدرًا وقيمة.

وهذا المعنى ينطبق على القرآن الكريم كل الانطباق؛ إذ يتضح منه أن رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين وأن كتابه هو خاتم الكتب لِتضمُّنه كل التعاليم الضرورية لرقي الإنسان، ولكونه (أي القرآن) ذروة التطور الروحاني. وحيث إن القرآن آخر الشرائع وأن محمدًا هو آخر الأنبياء المشرعين، فثبت أن الأنبياء الآخرين والكتب الأخرى ليست الغاية المنشودة، بل هي ذرائع ووسائل، والوسائل مهما كثرت لا تكون أهمّ من الغاية. فالقول إنا أنزلناه في ليلة تماثل قيمةً وقدرا، إنما يعني في الحقيقة

أن القرآن آخر الكتب وهو يساوي جميع الشرائع السابقة التي نزلت حتى الآن قدرًا، وأن زمن نزوله يساوي عصور الأنبياء كلهم بَركةً. إذن فقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هو في الواقع إعلان رباني عن كون القرآن الكريم آخر الكتب وأكملها حيث كشف الله تعالى أمام العالم بهذه الكلمة الوجيزة آلاف الآلاف من محاسن القرآن الكامنة في كلماته. والحق أن بيان هذا الموضوع مفصلاً يتطلب آلاف الصفحات وكتابًا مستقلا، فأكتفي بهذا البيان.

والمعنى الثاني لهذه الآية بناءً على المعنى اللغوي للقدر هو أننا أنزلنا القرآن في ليلة ذات حرمة، بمعنى أن القرآن قد نزل في عصر مظلم سوف يظل محطّ تعظيم الناس، والشيء الذي يصبح محطّ تعظيم الناس لا يمكن أن يُمحى. يقول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(الرعد:١٨). فمثلاً تسمى الكعبة البيتَ الحرام إشارةً إلى حفظها وإرساء تعظيمها على الدوام. فالليلة ذات الحرمة تعني أنها ليلة تُحفَظ حرمتها وحقوقها دوما، وعليه فستعني هذه الآية أننا أنزلنا القرآن في عصر هو آخر العصور، والذي لن يغيّره أي عصر آخر بل سيُرسَى عزُّ هذا العصر وعظمته دائما. وهذا المعنى أيضا ينطبق على القرآن الكريم، لأن عصر نزوله قد اعتُبر عصر هداية العالم إلى الأبد. فالآن كلما أراد أحدٌ الرشد والهدى فلا بد له أن ينظر إلى هذه الليلة، فإن بركاتها هي التي تهدي الإنسان إلى الحق والسداد، وأن طرق الهداية والرشاد التي تنبع من هذه الليلة لن تُسَدّ أبدًا، بل هي سارية وسوف تبقى سارية وممتدة إلى يوم القيامة.

والمعنى الثالث أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات وقار. والوقار هو الثقل والفهم والعقل، وعليه فالمراد أن القرآن قد أُنزل في ليلة ذات ثقل وفهم وعقل، بمعنى أن تعاليمه ثابتة صامدة لا يزعزعها هجوم العدو ونقده. هذا المعنى ينطبق على القرآن الكريم أيضا كل الانطباق. إن أحكامه مبنية على حِكَم عظيمة، فلا يأمر أمرًا إلا ويذكر حِكْمته وعِلَّته، فيكشف ضرورة العمل به وفوائده وأضرار عدم العمل به، فيؤكد أهميته بأدلة لها ثقلها ووزنها بحيث لا يستطيع أي نقد فلسفي دحضَها، فكل

ما يقول به يكون ذا وزن وثقل، ومهما حاول العدو دفعه فلا بد له من الاعتراف بهزيمته في الأخير.

والمعنى الرابع أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات غنى. ومعنى الغنى: الاكتفاء واليسار ضدُّ العسار (الأقرب).. أي سدُّ الحاجة والسهولة، وعليه فالمراد من هذه الآية أن القرآن نزل في زمن يسدّ الحاجات، وهذا المعنى أيضا ينطبق على القرآن تمامًا لأنه يعلن أنه يسدّ كل حاجة روحانية ودينية. قال الله تعالى في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾(العنكبوت:٥٢).. والكتاب هنا يعني كتابًا كاملا. كذلك أعلن القرآن أنه تفصيل الكتاب ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس: ٣٨).. أي أنه يبين تفاصيل الشرع كلها. وقال الله تعالى ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(يوسف:١١٢).. أي أنه يبين كل الأمور الدينية الضرورية، وفيه هدى ورحمة للمؤمنين بكل أنواعهم. وقد ورد هذا المعنى في السورة قيد التفسير فقال الله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. فثبت أن القرآن الكريم يغني عن جميع الأسفار الأخرى، حيث تضمَّن كل الأمور الضرورية، فثبت بالتالي أن نزوله كان في زمن غنى.

والمعنى الخامس أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات قوة، أي أن ظهور قدرة الله وقوته منوط بهذه الليلة. وقد سبق أن فسّرنا هذه الآية على ضوء هذا المعنى عند الحديث عن المعاني التي ذكرها صاحب المفردات، فلا داعي لإعادته هنا.

والمعنى السادس أنا أنزلنا القرآن في ليلة ذات سهولة. وهذا المعنى ينطبق على القرآن أيضا وعلى عصره، فلو تصفحت الصحف الأُولى وجدتها قد جعلت الدينَ ألغازًا ومتاهات، فلا تفهم منها العقائد ولا الأعمال. فمثلاً لو نظرت إلى تعاليم الهندوسية أو اليهودية حول العبادة وجدت فيها شروطًا لا داعي لها إذ لا يستطيع معها الجميعُ القيام بالعبادة أولاً، ولو حاولوا القيام بها مع هذه الشروط فاقت طاقتَهم. ثم إن هؤلاء القوم واقعون في أوهام يصعب على العقل تصديقها. إنما هي تعاليم القرآن الكريم التي يسهل على الإنسان الإيمان بها والعمل بها، وقد أعلن القرآن

نفسه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٨). لقد استعمل القرآن هنا كلمة الذِكر، والذِكر حفظُ الشيء والعمل به، فالمراد أن تعاليمه لا تشقّ على العقل، أي أن الإيمان بها سهل، كما أن العمل بها سهل، إذ تراعي الأقوياءَ والضعفاء كلهم. خذوا مثلا الصلاة، فقد أُمر المسلمون أن يصلوا في المسجد، لكنه أوضح أيضا أن الأرض كلها مسجد لله تعالى (أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الجمع في المسجد، والبخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ لي الأرض مسجدًا). فكأنه يقول: ليس ضروريًا أن تؤدوا الصلاة في مكان خاص أو على سجاد خاص أو وراء شيخ، بل يمكنكم أن تنظفوا الأرض حيثما شئتم وتقدّموا أحدًا منكم ليؤمّكم فيها، وإذا مرض أحدكم أو كان في سفر فيجوز له الصلاة من دون جماعة. ثم هناك شرط الوضوء للصلاة، لكن إذا كان المرء مريضا أو لم يجد ماء فيجوز له أن يصلي بغير وضوء مكتفيًا بالتيمم، وإذا كان مرضه شديدا بحيث لا يقدر على الوقوف فيمكن أن يصلي في البيت وجالسًا، فإن لم يقدر فيصلي مستلقيًا بإشارةٍ من الرأس، فإن لم يقدر فبإشارة من الأصبع أو العين، فإن لم يقدر فبقلبه، وإذا أُغمي عليه فيمكن أن يصلي في وقت آخر. ولا يختص هذا بالصلاة فقط، بل إن القرآن قد جعل هذه المرونة في كل حكم من أحكامه نظرًا إلى ضرورات الناس وطاقاتهم. فثبت أن تعاليم القرآن هي ذات سهولة.

ورُبَّ قائلٍ يقول: لماذا قيل هنا إن القرآن قد نزل في ليلة صفتها كذا وكذا، بدلاً من القول إن القرآن صفاته كذا وكذا؟ والجواب أن الله تعالى لم يتناول هنا موضوع القرآن وحده، بل أشار إلى مواضيع أخرى كما سنوضح لاحقا، فتحدّثَ عن الرسول ﷺ وأظلاله من أتباعه، فلو قيل هنا إن القرآن صفاته كذا لما أمكن تناول المواضيع الأخرى؛ فلكي ينطبق هذا الموضوع على القرآن وعلى الرسول ﷺ وعلى غيره من المأمورين على السواء نُسبت هذه الصفات إلى الزمن الذي نزل فيه القرآن.

لقد اتضح مما سبق أنني قد تناولت كِلا المفهومين لليلة القدر، أوّلُهما: أن المراد منها تلك الليلة المعينة التي تسمى ليلة القدر بسبب نزول القرآن الكريم فيها، ثانيهما: أن المراد من ليلة القدر ذلك العصر المظلم الذي نزل فيه القرآن، حيث بين

الله تعالى أن غيرة الله تثور في مثل تلك العصور المظلمة وتضع الأساس للصلاح والتقوى، فعندما تزداد الظلمة شدة وتجذب فضل الله تعالى فإن ذلك العصر يكون مظلمًا في الظاهر، لكن في الواقع يكون زمن ظهور قوة الله، فكأن ليلة القدر ليلة مِن وجه، ولكنها أعظمُ شأنًا من النهار من وجه. إنها وقت الظلام، لكنها وقت إظهار قدرة الله أيضًا، يبلغ فيها الظلام ذروته في أعين الناس، لكنها عند الله بمثابة نواة لنور عظيم يتجلى في المستقبل، فهي تُشبهُ رحم الأم الذي استقرّتْ فيه النطفة. قال الله تعالى ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾(الزمر:٧).. أي أن الله تعالى يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا تدريجيًا في ظلمات ثلاث حتى يصبح الجنين طفلاً كاملا. فكما يوضع أساس خلق الإنسان في رحم الأم الذي تستقرّ فيه النطفة والذي يكون مظلمًا، كذلك تكون ليلة القدر مظلمة كرحم الأم، لكن هي التي يوضع فيها أساس خلق الأمة والأجيال التالية.

وهناك معنى ثالث لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. أي أننا أنزلنا محمدًا في ليلة القدر، بمعنى أننا خلقناه في زمن يبتعد فيه الناس عن الله عادةً، ويُنزَع فيه نور السماء كلية، ويصبح الإنسان محروما من أفضال الله تعالى، فينزل عبد من عباد الله المختارين، فيعود بالناس إلى النور والهدى ثانية. وإن هذه الليلة تكون أكبر دليل على صدق هذا النبي، إذ لا يرسل الله تعالى نبيًّا إصلاحيًّا إلا عندما تحل بالعالم ليلة مظلمة روحانيًّا.

إن الأنبياء نوعان: تأسيسي وإصلاحي. أما النبي التأسيسي فينزل عند فساد العقائد والقضايا الأساسية، فيضع الأساس لدين جديد أو لشرع جديد. وأما النبي الإصلاحي فهو الذي يأتي ليواصل مهمة النبي السابق وليس للقضاء على الفساد الذي يتطرق إلى العقائد والقضايا الأساسية. ومثال الأنبياء المؤسسين موسى والمسيح ونبينا –عليهم السلام– فقد جاءوا في وقت انمحت فيه الشرائع، أو غابت فحواها عن أعين الناس. ومثال الأنبياء الإصلاحيين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف –عليهم السلام– إذ لم يكن في عصرهم فساد عقدي بُعثوا للقضاء عليه

ولإقامة شريعة جديدة، وإنما كان غرض بعثتهم ترسيخ الشرائع الموجودة سلفًا بعملهم وتحت رعايتهم، أو لنشرِها في الذين لم يؤمنوا بها. الحق أن كلا النوعين من الأنبياء يظهرون في عصر يكون بمنزلة الليلة نظرًا إلى العصور الأخرى، غير أن هذه الليلة تكون أشدَّ ظلمةً عند بعثة الأنبياء المؤسسين بحيث لا يسع أحدًا إنكاره، وإلى ذلك قد أشار الله تعالى بقوله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤٢).. أي قد ظهر الفساد في الأمم التي تؤمن بالأنبياء وفي الأمم التي لا تؤمن بأي نبي، وقد حصل ذلك بسبب عدم عملهم بوحي الله تعالى، فالآن سيعاقَبون على بعض أعمالهم التي عقوبتها مقدرة في الدنيا لكي يتوجهوا إلى التوبة فيعودوا إلى الله تعالى.

وإشارةً إلى هذه الظلمة الشديدة قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. أي أنزلنا محمدًا في ليلة روحانية شديدة الظلام اقتضت أن ينزل فيها رسول من الله لإصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات. وإلى الأمر نفسه قال الله تعالى في وصف النبي ﷺ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٦-١٧).

فقوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني أنه قد جاءكم رسولنا ليكشف عليكم كثيرًا من أنوار الكتاب المقدس التي لم تنكشف لسوء أعمالكم. والمراد من ﴿نور﴾ هو الرسول ﷺ.

لقد ثبت من هنا أن زمن الرسول ﷺ هو زمن الظلمة، أي زمنُ ليلة روحانية مظلمة، وفي هذا الزمن المظلم أنزل الله رسولَه والقرآن وهَدَى الناسَ لطرق السلام وفتَح لهم طرق الرقيّ ثانيةً. فثبت أن ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يمكن إرجاعه للنبي ﷺ أيضًا. وهناك قرينة على ذلك، وهي أن الله تعالى كما تحدث في السورة السابقة عن القرآن بقوله ﴿اقْرَأْ﴾، كذلك تحدّثَ فيها عن الرسول ﷺ أيضًا إذ قال ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾(العلق:١٠-

١١). فكما أن ضمير الغائب في قوله ﴿أَنْزَلْنَاه﴾ عائد على القرآن الكريم كما هو واضح في المعاني التي بيناها آنفا، كذلك يرجع ضمير الغائب هذا إلى المذكور في قوله تعالى ﴿أرأيت﴾ و﴿عبدا﴾، وهو محمد رسول الله ﷺ. فثبت أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يعني أيضا أنزلنا محمدًا في هذه الليلة.

لقد بيّنتُ من قبل أن الأنبياء العظام ينزلون عند الظلمة الشديدة السائدة في العالم، إذ لو لم يبعث الله تعالى عندها نبيًا لغزت الشبهات قلوب الناس حول وجود الباري ﷻ. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الدليل مرارًا مبيّنًا أن وحي الله ينزل عند الضرورة؛ كقول الله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(يس:٣٤).. أي أن من سنة الله المستمرة أنه عندما تموت الأرض وتنفد الذخائر والغلال يُنزل الله الماء من السماء، لكي لا تنفد الغلال عند الناس.. بمعنى أن على الكافرين أن يفكروا أنه ما دام الله تعالى يسدّ حاجاتهم المادية فلماذا لا يسدّ حاجاتهم الروحانية؟ ولماذا لا يبعث نبيه عند الضرورة؟ وكذلك قال الله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٤٩-٥١). فقوله تعالى ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني أن جهات هبوب الرياح تختلف من بلد إلى آخر، مما يؤدي إلى نشر السحب في السماء.

ولا يختلجنّ في قلب أحد بأن الحديث في هذه الآية، إنما هو عن إحياء الموتى ماديًّا، ذلك أن هداية الضالين أو منح العلوم الإلهية لمن يجهلون معارف الدين يُسمَّى إحياءَ الموتى، قال الله تعالى في وصف رسوله الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥).. أي: أيها المؤمنون، استجيبوا لله ولرسوله حين يدعوانكم، لأنكم أموات وهما يدعوانكم لإحيائكم، فخيركم في تلبية ندائهما. وفي وصف هؤلاء الموتى أنفسهم قال الله تعالى أنهم مُلقَون

في الظلمات أي أنهم في ليل روحاني مظلم حيث قال ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام:٤٠).. وكذلك وصف الله تعالى رسوله الكريم فقال ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (المائدة:١٧).

لقد تبين من هذه الآيات أنه كلما ساد العالَم ظلمة روحانية ومات الناس موتًا روحانيا بعث الله لهم رسولاً من عنده، فكان لزامًا أن يُبعَث رسول في زمن محمد ﷺ إذ كان زمن الظلمات الحالكة، فثبت أن دعواه كانت في محلها ووقتها. كان الناس عطاشى ومست الحاجة لماء السماء. كانت الدنيا ميتة وكانت بحاجة إلى من يحييها. كان العالم في ليلة مظلمة، فمست الحاجة إلى شمس روحانية تبدّد ظلمة هذه الليلة، وتحوِّلها إلى نور الإيمان. وقد أشير إلى هذا المعنى نفسه في آية أخرى حيث سمى الله تعالى محمدا ﷺ ﴿سِرَاجاً مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٧).

إذن فبإعلان أننا قد أنزلنا محمدا في ليلة القدر قد قدم الله تعالى على صدقه ﷺ دليلاً قويًا لا يسع أي دين إنكاره. فأيُّ دينٍ لا يعترف أنه كلما سادت العالَم ظلمة شديدة بعث الله مِن عنده مأمورًا ليهيئ للناس النور؟ فالتوراة مثلاً توافق على ذلك. لماذا جاء المسيح عليه السلام؟ لأن ليلة مظلمة كانت سائدة عندها في بني إسرائيل. لماذا تتوقع الديانة الهندوسية بعثة كرشنا في الزمن الأخير ثانيةً؟ لأن ذلك الزمن يكون زمن الظلام. والبوذية والزرادشتية أيضا تعلنان أنه كلما سادت الظلمة العالَم بعث الله مأمورًا من عنده. فكيف يمكن إذن ألا يُبعث مأمور رباني في عصر محمد مع أن الظلمة قد بلغت فيه الذروة؟ فلو لم يبعث الله مأمورًا من عنده في ذلك الوقت لأصبحت كل الأديان باطلة، وأصبح وجود الباري تعالى ضربًا من الوهم. فثبت أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ دليل ساطع على صدق النبي ﷺ. فمَن ذا الذي بُعث لتبديد ظلمة هذه الليلة غير نبينا ﷺ؟ إذا كان محمد ﷺ كاذبًا في دعواه – والعياذ بالله– فباطلة كل الأديان التي تتفق على أن الله تعالى يأتي بالشمس الروحانية حتمًا كلما اشتدت الظلمة وطالت، تمامًا كما يأتي بالشمس المادية بعد الليلة المادية.

وجدير بالذكر هنا أن الكُتّاب المسيحيين يقولون عن النبي ﷺ إن سبب نجاح تعاليمه أنه بُعث في عصر فسدت فيه الأديان كلها (ميزان الحق -بالأردو- للقسيس فندر، الفصل ٥ ص ٣٤٢). لكنهم لا يفكّرون أنهم بقولهم هذا يبرهنون على صدق النبي ﷺ. إذا كانت الأديان كلها قد فسدت في زمنه ﷺ - مما سهّل له الغلبة على المسيحيين من ناحية وعلى الفرس من ناحية أخرى — فنقول: ألا يُرسَل الرسل في زمن كهذا تمامًا؟ إذا كانت أديان العالم قد فسدت عند بعثته ﷺ فعلاً، وكان الناس قد ابتعدوا عن تعاليم أديانهم، فهل هذا تصديق لدعواه ﷺ أم تكذيب لها؟ هل يأتي الأنبياء في زمن يكون فيه الناس متمسكين بالصدق والسداد والصلاح والأخلاق؟ ألم يكن سبب نجاح المسيح عليه السلام أن الناس كانوا قد فسدوا في زمنه ولم يبق فيهم الصلاح والبر والتقوى، فصار الحق غالبًا على الباطل؟ ألم يكن هذا هو سبب نجاح موسى عليه السلام؟ ألم يكن هذا هو سبب نجاح كرشنا ورام تشندر وزرادشت وبوذا؟ بلى، هذا هو سبب مجيئهم من عند الله تعالى. إذا كان هذا الأمر دليلاً على كذب نبي، فهو دليل على كذب الأنبياء جميعًا، إذ لا يبعث نبي في زمن صلاح الناس، وإنما يبعث عند سوء أخلاقهم وفساد إيمانهم وانغماسهم في النجاسات والأدران.

والمفهوم الرابع لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هو أننا نَظَلّ نُنزِل محمدًا والقرآنَ في ليلة القدر، بمعنى أننا لم ننزل القرآن ومحمدًا في المرة الأولى في زمن الظلام فحسب، بل كلما سادت الظلمة أنزلهما في الدنيا لهداية الناس وإرشادهم.. أي لن يأتي زمان يفسد فيه الناس إلا ويهيئ القرآنُ ومحمد ﷺ لهم الهدى، ولن تمسّ حاجة لشريعة جديدة، بل كلما تضاءل نور القرآن في العالم واحتجب نور محمد عن أعين الناس بعث الله تعالى في الدنيا شخصيات روحانية تكون أظلالاً لمحمد رسول الله ﷺ، فيكشفون للناس نوره ثانية، وينشرون تعاليم القرآن مرة أخرى، ويُثبِتون للعالم أنه لم يكن في القرآن ولا في محمد عيبٌ ولا نقص، بل كان الفساد في أفهام الناس إذ تقاصرت عن إدارك معانيه ومفاهيمه، وكان الفساد في قلوبهم ففشلوا في الاقتباس من نور محمد ﷺ.

وقد صرح الله تعالى بهذا في آية أخرى إذ قال ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الجمعة:٣-٤). لقد بيّن الله تعالى هنا أنه قد أنزل محمدا في زمن بعثته الشخصية، وسيُنـزله ثانيةً في المستقبل حين تسود العالَم ظروف مماثلة.. أي سيبعث الله نائبًا للرسول ﷺ يكون ظلاً كاملاً له ﷺ، فيعود بالإسلام إلى الدنيا ويرسي عظمته تارةً أخرى نيابةً عنه. وقد أخبر الرسول ﷺ أن القرآن سيرتفع إلى السماء في ذلك الزمن فيعود به هذا الموعود ثانية حيث قال ﷺ: "لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه" (المشكاة، كتاب العلم).. أي يصبح القرآن عندها باقيًا بالاسم والكلمات فقط إذ يجهل الناس معارفه ومفاهيمه الحقيقية، فيُبعَث ذلك الموعود فيأتي بالقرآن من السماء مرة أخرى، فلن يكون القرآن في العالم باسمه ولفظه فقط، بل يعود إلى الدنيا بكامل علومه ومعارفه تارة أخرى.

وهناك إشارة إلى هذا الأمر في السورة قيد التفسير إذ قال الله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، حيث تدل هذه العبارة على الاستمرار، فالمعنى: أنه ستأتي ليال كثيرة كليلة القدر وستنزل فيها ملائكة الله وروحه. فثبت من هنا أن قوله تعالى ﴿أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ لا يتعلق بالماضي فقط بل بالمستقبل أيضا. وهناك في القرآن أمثلة كثيرة لاستعمال صيغة الماضي بمعنى المستقبل.

لقد ذكرت آنفًا أن هذه الآية تشير إلى أظلال كاملين للرسول ﷺ. غير أنها تشير إلى بعثة أظلال النبي ﷺ الناقصين أيضًا، إذ إن الظل الناقص ظِلٌّ له على أية حال، أعني أنها تشير إلى المصلحين الآخرين الذين يقيمهم الله تعالى لإصلاح الأمة في زمن لا تكون الظلمة فيه شديدة كاملة، غير أنّ الناس سيشعرون عندها بحاجة إلى الإحياء الروحاني من جديد. لقد ورد في الحديث أنه ستمسّ الحاجة إلى مصلح يحذّر الناس على رأس كل قرن، فيبعث الله عندها مجدِّدًا في الأمة لسدّ هذه الحاجة (سنن أبي داود: كتاب الملاحم). والحق أن الآية قيد التفسير تشير إلى بعثة هؤلاء

المجددين أيضًا، لكونهم نُوّابًا للرسول ﷺ ولو بشكل جزئيّ، إذ يظهرون في ليلة مظلمة ولو بشكل جزئي.

والمفهوم الخامس لقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هو أننا أنزلناه في بيان عظمة ليلة القدر؛ وفي هذه الحالة لا يكون لفظ ﴿فِي﴾ بمعناه العادي، بل معناه: فيما يتعلق بليلة القدر. وقد ذهب عامة المفسرين إلى هذا المعنى فقالوا المراد أن القرآن نزل في بيان عظمة ليلة القدر التي تكون في أواخر رمضان. (فتح البيان)

وإذا فسرنا الآية بهذا المعنى فالسؤال: ما هي تلك الليلة التي نبه الله إليها هنا؟

يرى المفسرون أنها تلك الليلة التي تكون في ليالي رمضان والتي قد أشار إليها الرسول ﷺ في الأحاديث بكثرة، فهناك رواية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَيُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا قَدْ حُرِمَ". (مسند أحمد: حديث رقم ٧١٤٨)

وقوله ﷺ: "تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَيُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ" يعني أن الصالحات تكثُر فيه، لأن المؤمنين يتجنبون الآثام كليةً بتأثير الصيام. أما قوله ﷺ: "وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ" فمعناه: حتى إن الذين يقعون في السيئات عادةً يأخذون الحذر برؤية تضحيات إخوانهم في هذا الشهر.

وقد نقل النسائي رواية بهذا المعنى عن أبي أيوب الأنصاري، كما ورد في البخاري ومسلم عن أبي هريرة: "مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه." (البخاري، كتاب الصوم، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين)

لقد تبيّنَ من هذه الأحاديث أن الرسول ﷺ سمّى ليلة من ليالي رمضان ليلةَ القدر، وقد وصَفها بما يشبه صفاتِ ليلة القدر المذكورة في القرآن الكريم مِن أنها خير من ألف شهر، وأنها تصبح سلامًا لهم نتيجة غفران ذنوبهم. وهذا التشابه يؤكد حتمًا أن ليلة القدر المذكورة هنا هي نفس الليلة التي ذُكرت في الأحاديث، أو أن هذه السورة تشير إلى ليلة القدر على الأقل.

وهنا ينشأ سؤال: هل من العقل أن تكون ليلةٌ لا تختلف عن غيرها من الليالي مليئةً بالبركات لهذه الدرجة؟ وهل من العدل أن من يعبد في هذه الليلة يُغفر له كل الذنوب السابقة؟ أليس هذا يجعل الإنسان يعتبر نفسه في غنى عن فعل الخيرات؟

والجواب: لا شك أنه لو قيل إن عبادة المرء في ليلة معينة تغفر ذنوبه كلها خلاف للعقل ويخلُق الأوهام في القلوب، ولكن الله تعالى قد وضع لليلة القدر شروطًا وأمورًا لا تصح معها هذه الشبهة. ومن الحقائق الثابتة أن من خصائص العقل الإنساني أن انتقال الأفكار (association of ideas) يؤثّر على الأعمال الإنسانية تأثيرًا عميقًا، فمثلاً عندما يقوم المرء على قبرٍ قريبٍ له تغلبه الرقّة، مع أن ما يراه أمامه ليس إلا كومة من التراب. لماذا يحدث هكذا؟ ذلك أن القبر يُذكِّره بقريبه المتوفى، فيستحضر كل الأحداث التي وقعت بينهما في حياته، فتمر ذكرياته في قلبه كالشريط واحدة بعد أخرى، فيفكّر أن هذه الأمور لن تعود ثانية، فتستولي على قلبه حالة عجيبة. فمع أن وفاة قريبه هذا ليس حدثًا قريبا، كما لا تزوّده ذكرياته معه بعلم جديد، إلا أن رؤيةَ القبر القديم وتذكُّرَ الأحداث القديمة تهيّج في قلبه عواطفه الميتة وأحاسيسه النائمة. وبالمثل يحتفل الناس بيوم الميلاد أو يوم الزواج، مع أن هذه الأيام لا تزوّدهم بعلم جديد عن ولادتهم أو زواجهم، إذ عندهم العلم بهذه الأحداث، بيد أن يوم الولادة هو أفضل فرصة لانتقال الأفكار إلى الولادة ويوم الزواج هو أفضل وسيلة لانتقال الأفكار إلى الزواج. وبناءً على هذه الحكمة ما الحرج في تحديد ليلة في رمضان لإحياء ذكرى نزولِ كتابٍ عظيمٍ هادٍ في هذا الشهر؟ فكأن الله تعالى يقول: لقد قطعنا مع الإنسانية في هذا الشهر عهدًا جديدا أبديا لا يُنسى، فإحياءً لذكرى هذا العهد في قلوب المؤمنين وتدليلاً على أننا قائمون على هذا العهد حتى اليوم، قد جعلنا ليلة من ليالي هذا الشهر ذاتَ فضلٍ خاص من حيث استجابة الدعاء. وهذا أمرٌ لا حرج فيه بل هو عين الصواب.

لقد قطع الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام عهدًا وجعل الختان علامة لهذا العهد (التكوين ١٧: ١٠). وهي علامة جسمانية لا علاقة لها بالروحانية، وهي مبدأ من

مبادئ الحفاظ على الصحة والطهارة البدنية فقط. لقد حفظ اليهود هذا العهد بينما نسيه المسيحيون، ولكن السؤال: إذا كان نسل إبراهيم عليه السلام لا يزال يحافظ على هذا العهد من خلال الختان فلماذا لم يَفِ الله بعهده لهم؟ التوراة صامتة على هذا السؤال. ولنفترض أن الله تعالى قد عهد لنسل إبراهيم أن تكون أرض كنعان لهم على الدوام، ولكن هذا أيضًا لم يحدث، لأن بني إسحاق هم وحدهم الذين يستحقون الوعد الإبراهيمي في زعم المؤمنين بالتوراة (التكوين ١٧: ١٩-٢١)، ولكنا نرى أنهم محرومون من هذا المُلك منذ ثلاثة عشر قرنا! لا شك أن المسيحيين نسوا الختان، ولكن اليهود لم يتركوا الختان، فلماذا نسي الله عهده معهم؟ لم تكن علامة بقاء العهد الإبراهيمي واستمراره إلا أن يلتزم الطرفان بالوفاء به، ولكنا نرى أن اليهود لا يزالون محافظين على الختان، ولكن الله تعالى لا يريد أن يفي بعهده هذا بحقهم.

وإزاء هذا العهد مع اليهود قطع الله تعالى مع المسلمين أيضًا عهدًا جديدا بإنزال القرآن الكريم وأعلن عن هذا العهد في رمضان، وجعل عليه علامة، ولكن لم يجعل علامته ختانًا، إذ كان العرب يقومون بالختان تأسيًا بإبراهيم عليه السلام، بل جعل الله علامة هذا العهد بالنسبة للمؤمنين أن يصوموا هذا الشهر الذي تم فيه هذا العهد، كما جعل لهم عليه عهدًا مقابل ذلك، فقال إذا صمتم شهر رمضان تخليدًا لذكرى هذا العهد فسوف أنزل من السماء في ليلة من أواخر ليالي رمضان معلِنًا: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٧).. أي أن المسلمين إذا احتفلوا بذكرى هذا العهد صائمين شهر رمضان، فإني أيضا سأحتفل بذكرى هذا العهد بليلة القدر، فأنزلُ من السماء لعبادي قائلا لهم: اسألوا فتُعطَون، وآمِنوا فتهتدون، لأنكم حفظتم عهدي وجدّدتم ذكرى عهدي بصيام رمضان، فأجدد ذكر عهدي بليلة القدر.

كم هي مباركة هذه العلامة للعهد الذي قُطع مع المسلمين! لا شك أن الختان شيء جيد، لكن صيام شهر لوجه الله تعالى أعظمُ شأنًا وأدعى إلى الروحانية من علامة الختان الظاهرة. ثم ما أعظمَ العهدَ الذي قطعه الله تعالى في الجواب! فإنه

تعالى لا يَعِدُهم بالمال والفضة والملك والحُكم تخليدًا لعهده، بل يَعِدُهم بليلة القدر قائلا: تصومون شهر رمضان على الدوام احتفالاً بذكرى نزول كلامي الأخير (القرآن الكريم)، وتجديدًا لعهدكم معي، وأنا أجدّد عهدي معكم من خلال ليلة القدر.. أي سأُنزلُ عليكم فيها أفضالاً خاصة وأستجيب لأدعيتكم، وأهب لكم إيمانا جديدًا حيًّا، لتعلموا دائما أني إلهٌ حيّ، ولستُ أقَلَّ منكم حفاظًا على هذا العهد، بل أنا أكثر منكم حفظًا له.

ما أعظمَ الأمرين اللذيْن جُعلا علامتين لإحياء العهد الذي تم بين الله والمسلمين! لقد جعل الله علامة العهد مع المسلمين علامةً روحانية (أي صيام رمضان)، بينما جعل علامة عهده مع بني إسحاق علامةً مادية (أي الختان)، ثم جعل الله تعالى علامةَ وفائه لهذا العهد للمسلمين علامةً روحانية (ليلة القدر)، بينما جعل علامة وفائه لعهده مع بني إسحاق علامةً مادية (بقاء ملك فلسطين في أيديهم). فكم هو ضئيل الختان مقابل صيام شهر كل سنة في كل العمر! ثم إن المسلمين أيضا يقومون بالختان تأسيًا بإبراهيم عليه السلام. ثم كم هي ضئيلةٌ أرضُ كنعان مقابل ليلة القدر! بل هي لا تساوي ثانيةً واحدة من ليلة القدر. ثم الغريب أن أرض كنعان أيضا قد وقعت في قبضة المسلمين بحسب الأنباء.

باختصار، إن صيام رمضان وليلة القدر علامتان على العهد المحمدي، كما كان الختان ومُلك فلسطين علامتين على العهد الإبراهيمي. إن صيام رمضان علامة على تجديد هذا العهد من قبل العبد، وليلة القدر علامة تجديد هذا العهد من قبل الله تعالى. ولا يخفى على العاقل المتدبر أن العلامتين اللتين جعلهما الله على عهده مع المسلمين هما أعظمُ شأنًا وروحانيةً وأدعى إلى كشف عظمة الله الحيّ وقدرته. هناك شعوب كثيرة يعيشون في بلادهم منذ آلاف السنين، ولكن ذلك ليس علامة قطعية على رضا الله عنهم، ولكن لو حظيتْ أمةٌ بليلة القدر التي يقترب فيها الله من العباد ويستجيب لأدعيتهم ويتجلى عليهم بمرضاته بحسب مراتبهم، لكان هذا دليلا ساطعًا على أن الله راضٍ عنهم وأنه لم ينسَ عهده معهم.

وجدير بالذكر أيضا أن الله تعالى كان قد وعد إبراهيم عليه السلام بحق ولديه الاثنين وألزمهما بالختان (التكوين ١٧: ٢٥، و٢١: ٤). ورد في التوراة أن الله تعالى وعد إبراهيم أنه سيعطي أولادَ إسحاق أرضَ كنعان للأبد: "فَقَالَ اللهُ: بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إسحاق. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ" (التكوين ١٧: ١٩). والمراد من إقامة العهد هنا استيلاؤهم على أرض كنعان أبدًا، وهذا ما يؤكده الكتاب المقدس في عدة أماكن. (التكوين ١٧: ٧-٨)

ولكن يتضح من الكتاب المقدس أيضًا أن عهدًا قُطع مع إبراهيم بحق بني إسماعيل أيضًا، لأنهم أُمروا بالختان أيضا ووُعدوا بالبركة حيث ورد: "وَكَانَ إسماعيل ابْنُهُ ابْنَ ثَلاَثَ عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ" (التكوين ١٧: ٢٥)، وكذلك ورد أن إبراهيم عليه السلام دعا الله تعالى وقال: "لَيْتَ إسماعيل يَعِيشُ أَمَامَكَ!" (التكوين ١٧: ١٨)، وورد: "وَأَمَّا إسماعيل فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا" (التكوين ١٧: ٢٠)، ثم ورد: "لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ (أي إسماعيل) أُمَّةً عَظِيمَةً" (التكوين ٢١: ١٨).

لقد ثبت من هنا أن هذا الوعد كان لإسماعيل أيضا، وإن لم يكن وعدُ امتلاك أرض كنعان بحقه، لأن هذا الوعد كان سيتحقق في بني إسحاق. لقد ظن اليهود والنصارى خطأً أن هذا العهد كان بحق أولاد إسحاق فقط، لكن الفقرات السابقة تبين أن العهد كان بحق إسماعيل وإسحق كليهما. فكيف وقع بنو اسرائيل في هذا الخطأ يا ترى؟

الجواب: أن للعهد الإبراهيمي جانبين: مجمل ومفصل، والعهد المجمل هو أن الله تعالى وعد إبراهيم عليه السلام أن يبارك في نسله، والمراد من النسل إسماعيل وإسحاق كلاهما كما هو ظاهر من الفقرات السابقة. أما العهد المفصل فينقسم إلى قسمين: فكان العهد بحق إسحاق أنه سينال مُلك كنعان نسلاً بعد نسل، وكان طبيعيًا أن يحفظ الكتابُ المقدس -الذي هو كتاب بني إسحاق- هذا العهدَ الخاص ببني إسحاق، ولكن عدم ذكره أيَّ عهد بحق بني إسماعيل لا يعني عدم وجود أي عهد

بحق بني إسماعيل. ذلك أن الكتاب المقدس يخبر أن الابنيْن كانا شريكين في العهد المجمل، فقد ورد بحق إسحاق قول الله تعالى "إني سأباركه"، والمراد من هذه البركة بقاءُ مُلكِ كَنْعان عند إسحاق نسلاً بعد نسل. وكذلك ورد بحق إسماعيل: "إني سأباركه". والسؤال هنا: كيف تحقق هذا الوعد بحق إسماعيل؟ إن البحث عن هذه الإجابة في الكتاب المقدس عبث، لأنه كتاب نسل إسحاق، إنما نعرف ذلك من روايات بني إسماعيل، أو مِن الوحي الذي نزل على النبي من بني إسماعيل، لأن معرفة العهد التفصيلي بحق إسماعيل لا يُعرف إلا منهم.

وعند تفحص تاريخ بني إسماعيل نجد رواية قديمة بأن الله تعالى منح إسماعيلَ "مكة المكرمة" مركزًا له، وأعطاه البريةَ العربية للعيش، ولا يزال بنو إسماعيل مستولين عليها منذ ذلك الحين. والقرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ – الذي هو من نسل إسماعيل– يذكر هذا العهد التفصيلي بحق نسل إسماعيل كالآتي: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسماعيل أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:١٢٦-١٢٧).

فقوله تعالى ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني مرجعًا لهم. وقوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يعني: أدُّوا صلواتِكم وعباداتِكم بإخلاص كإخلاص إبراهيم. وقوله تعالى ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ يعني: بلدًا يتمتع بأمن، كما يهيئ الأمنَ للآخرين.. أي لا يكون بلدًا ذا أمنٍ فحسب، بل يهيئ الأمن للبلاد والأمصار الأخرى أيضا. أما قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فيعني أنني سأستجيب دعاءك يا إبراهيم ولكن بتعديلٍ وهو أنَّ مَن كَفَر فلن أحرمه من النِّعَم المادية، غير أني سأعذّبه على كفره بعذاب الآخرة.

ما أروعَه مِن عهدٍ أخذه الله تعالى من إسماعيل، علاوةً على عهد الختان! فقال له: مِن واجبك وواجبِ أولادك أن تخدموا الكعبة وتُعِدّوها مكانًا طاهرًا للعبادة حتى يجتمع فيه الناس ويعبدوا الله الأحد ويسبحوه ويحمدوه.

كان إسماعيل عليه السلام ملتزمًا بعهد الختان، ولكن الله تعالى أضاف إلى الختان هذا العهد الروحاني اللطيف، وفي المقابل عهد مع إسماعيل ونسله أنه سيعطيهم الكعبة وما حولها من المناطق، وأنهم سيتمتعون فيها بالأمن دائما، فلن يستطيع عدو احتلالها، وأن الناس سيأتون إليها للحج من كل البلاد، ومِن العالم كله في الزمن الأخير.

كم هي رائعةٌ علامةُ العهد المقطوع لإسماعيل عليه السلام ونسله! لقد وعد الله تعالى إسحاق عليه السلام بأنه سيُعطيه وأولادَه أرض كنعان؛ وهذا وعد مادي سياسي فقط، ثم لم يعد الله تعالى بأن هذه البلاد ستتمتع بالأمن دومًا، وبالفعل دُمِّرت أورشليم (القُدس) مرارًا بأيدي منكري الدين الإسرائيلي. أما إسماعيل فوَعَدَه الله تعالى أن يعطيه وأولاده مكة وما حولها، لكن لا بالسيف والسنان، بل نتيجة حب الناس واحترامهم لهم، وأن الله تعالى سوف يحمي مركزهم من الأعداء دائما، فيحكمون كل هذه المنطقة روحانيا وماديا؛ أما الحكم الروحاني فمن حيث إن الناس سيعظّمون مكة ويحجّون البيت الحرام فيها، وأما المُلك المادّي فمن حيث إن مكة ستصبح مركزًا آمِنًا للبلاد، وأن أهلها سيتمتعون بالنفوذ السياسي على ما حولها. والتدبر البسيط يكشف أن عهد إسماعيل أعظمُ شأنًا مِن عهد إسحاق عليهما السلام. فإن علامة العهد الذي التزم به إسحاق وأولاده (أعني الختان) قد التزم به إسماعيل وأولاده أيضا، ولكنهم التزموا بعلامة أخرى إضافية بأمر الله تعالى، بأنهم سيسعون جاهدين للحفاظ على عبادة الله الأحد، وأنهم يحملون مسؤولية إشعال قنديل ذكر الله في واد غير ذي زرع، معرضين عن الدنيا وزخارفها. أما علامة العهد الذي فرض الله على نفسه مقابل هذا العهد فهي أيضا أكثر روعةً من علامة العهد الذي جعل لابن إسحاق، فقد وعد الله تعالى إسحاقَ وأولاده بمُلك كنعان، بينما وعد سبحانه وتعالى إسماعيلَ وأولاده بحماية مركزهم من هجمات الأعداء دائمًا وأنهم سيُعطَون الحكم على مركزهم مكة وما حولها، ولكنه لا يكون حكمًا سياسيا

فقط، بل روحانيا أيضا. مما يعني أن بني إسحاق وُعدوا بالحكم على كنعان فقط، أما بنو إسماعيل فقد قطع الله معهم ثلاثة عهود: حماية مكة، والحُكم على العرب، والسيادة الروحانية على العرب كلهم.

ولما كان هذا العهد خاصًا ببني إسماعيل فكان طبيعيًا أن يحفظوه هم، كما حفظ بنو إسحاق العهد الخاص بهم في الكتاب المقدس. هذا هو الأمر اللطيف الذي كشفه الله عليّ خاصة، والذي يحسم الخصام الدائر منذ زمن سحيق بين بني إسحاق وبني إسماعيل حول العهد الإبراهيمي. لا شك أن مُلك كنعان قد أُعطي لبني إسحاق بحسب هذا العهد، لكن لا جرم أيضا أن الله تعالى كان قد قطع عهدًا مماثلا بل أفضل منه مع بني إسماعيل أيضًا، وقد تحققَ بحقهم أروعَ مما تحققَ لبني إسحاق عهدهم، كما سترون ذلك مفصّلاً لدى تفسير سورة قريش وسورة الفيل.

وهنا ينشأ سؤال: إذا كان الله تعالى قد وعد بني إسحاق بمُلك كنعان في العهد الإبراهيمي، فلماذا أُعطيَ هذا المُلك لبني إسماعيل أيضا؟ ولماذا تنبأَ القرآن أن هذا المُلك سيوهب للمسلمين إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:١٠٦-١٠٧). فقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ يعني أننا نبلّغ رسالتنا هذه إلى عبادنا العابدين أي المسلمين.. بمعنى أنه إذا سنحت لهم الفرصة الشرعية فعليهم أن يتوجهوا إلى فلسطين وسوف يفتحها الله لهم، لأن داود قد سبق أن أدلى بهذا النبأ. وبالفعل قد فهم المسلمون هذه الإشارة الربانية، فاصطدم قادتهم مع حفنة من جنودهم بإمبراطورية الروم وهزموها واستولوا على ملك فلسطين، رغم أن تلك الإمبراطورية كانت أقوى دولة في العالم.

والجواب على هذا السؤال هو أن هناك وعدَيْن حول أرض كنعان، وعدٌ مع إبراهيم عليه السلام بأن هذا المُلك سيُعطى لبني إسحاق، ووعدٌ على لسان داود عليه السلام أن هذه البلاد سيرثها عباد الله الصالحون العابدون. لقد جاء داود بعد إبراهيم -عليهما السلام- بفترة تتراوح بين ١٠٠٠ و١٢٠٠ سنة، وكان أوان انتهاء هذا العهد الإبراهيمي مع بني إسحاق قد اقترب في زمن داود، لأن قيامة الأمة الموسوية اقتربت

وهلاكها أوشكَ، فأنبأ الله على لسان داود عليه السلام بنبوءة أخرى وأخبر أن العهد الإبراهيمي بحق نسل إسحاق قد أوشك على الانتهاء، وسوف يتحقق هذا العهد الآن بطريق آخر، وسوف تُنزع أرض كنعان من نسل إسحاق وتذهب إلى قبضة أتباع الدين الصادق. فاستيلاء المسلمين على فلسطين لم يكن بحسب نبوءة إبراهيم عليه السلام، بل بحسب نبوءة داود عليه السلام (المزامير ٣٧: ٢٩). لقد استولوا بحسب عهد إبراهيم عليه السلام على مكة والحجاز، واستولوا على أرض كنعان فلسطين بحسب نبوءة داود عليه السلام، لذلك نجد القرآن الكريم لا يشير إلى عهد إبراهيم في معرض الحديث عن وقوع كنعان في قبضة المسلمين، بل يشير إلى نبوءة داود، مع أن نبوءته لو كانت تكرارا للنبوءة الإبراهيمية لكان ذكر نبوءة إبراهيم هو الأَولى في هذا السياق.

ولا يغيبن عن البال أن بعض الأنباء الأخرى الواردة في القرآن والحديث تكشف أن من المقدر أن يستولي اليهود على هذه الأرض ثانيةً بصورة مؤقتة. وقد بدأت آثارها تظهر في الأفق.

والآن أتناول السؤال: هل ليلة القدر ليلة معينة؟ وهل هي نفس الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن الكريم؟

إن من الحقائق الثابتة أن القرآن الكريم بدأ نزوله في رمضان، ولكن لا نعرف الليلة التي بدأ نزوله فيها في رمضان معرفةً قطعية، إذ يرى البعض أنها ليلة الـ١٧، ومنهم من يرى أنها ليلة الـ١٩، والـ ٢٤ (ابن كثير). فليس هنالك أمر قطعي بهذا الصدد اللهم إلا أنه نزل في ليلة من النصف الثاني من رمضان. غير أن الثابت من الحديث أن ليلة القدر التي تأتي في كل رمضان تكون واحدة من العشر الأواخر (البخاري: كتاب فضل ليلة القدر)، مما يبين أن ليلة القدر ليست تلك الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن، بل المراد منها ليلةً من الليالي جعلها الله تعالى علامةً وتذكارًا على نزول القرآن الكريم.

أما السؤال هل الليلة التي قدّرها الله تعالى تذكارًا لنزول القرآن هي ليلة معينة؟ فالجواب: لا، بل إنها تتراوح في العشر الأواخر من رمضان. والمعلومات التي وردت عنها في مختلف الأحاديث كالآتي:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرون. (مسند أحمد: مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْبَوَاقِي، مَنْ قَامَهُنَّ ابْتِغَاءَ حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهِيَ لَيْلَةُ وِتْرٍ: تِسْعٍ أَوْ سَبْعٍ أَوْ خَامِسَةٍ أَوْ ثَالِثَةٍ أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ. (مسند أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه)

وهناك رواية عن أبي ذر قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، أَفِي رَمَضَانَ هِيَ أَوْ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ: بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ. قَالَ قُلْتُ: تَكُونُ مَعَ الأَنْبِيَاءِ مَا كَانُوا فَإِذَا قُبِضُوا رُفِعَتْ، أَمْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ قُلْتُ: فِي أَيِّ رَمَضَانَ هِيَ؟ قَالَ: الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأُوَلِ أَوْ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ؟ ثُمَّ حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثَ، ثُمَّ اهْتَبَلْتُ وَغَفَلْتُهُ قُلْتُ: فِي أَيِّ الْعِشْرِينَ هِيَ؟ قَالَ: ابْتَغُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، لا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا. ثُمَّ حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَدَّثَ، ثُمَّ اهْتَبَلْتُ وَغَفَلْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِحَقِّي عَلَيْكَ لَمَا أَخْبَرْتَنِي فِي أَيِّ الْعَشْرِ هِيَ؟ قَالَ: فَغَضِبَ عَلَيَّ.... قَالَ الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، لا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا. (مسند أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه)

وروي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَسْمَعُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ. (أبو داود: كتاب الصلاة، باب من قال هي في كل رمضان)

وروي عن عبد الله بن مسعود ومَن تابعه من علماء: أنها توجد في جميع السَنة، ولا خصوصية لرمضان في ذلك. (ابن كثير)

ويحكى عن أبي رزين: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان. وقيل إنها تقع في ليلة سبع عشرة. وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعا عن ابن مسعود، وروي موقوفا عليه. وقد روى أبو داود فيه حديثًا موقوفا عن ابن مسعود. وقد روى هذه الرواية بعض الصحابة والتابعين والإمام الشافعي. ويحكى عن الحسن البصري أن القرآن الكريم نزل في ليلة القدر، وقد ورد في القرآن أن غزوة بدر ونزول القرآن كان في يوم واحد، وكانت معركة بدر في السابع عشر من رمضان يوم الجمعة، فليلة

القدر هي السابعة عشر. وقيل: ليلة القدر هي ليلة تسعة عشر، يحكى عن علي وابن مسعود. (ابن كثير، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من رأى أنها ليلة سبع عشرة)

وعن أَبي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، قال: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ العَـشْرَ الأُوَل مِـنْ رَمَضَانَ، وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَـكَ. فَـاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ. فَقَـامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ: مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، وَإِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فِـي وِتْـرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ. وَكَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ وَمَـا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزْعَةٌ، فَأُمْطِرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ". (البخاري، كتاب الأذان، باب السجود على الأنف والسجود على الطين)

وفي لفظ: "في صبحِ إحدى وعشرين". وقال الشافعي: هذا الحـديث أصـحّ الروايات.

وفي رواية مسلم: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ يَقُولُ: ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ. (مسلم، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر)

وروى الطيالسي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين. (الطيالسي: حديث رقم ٢١٦٧)

وروي عن بلال عن النبي ﷺ قال: ليلة القدر ليلة أربع وعشرين. (مسند أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث بلال رضي الله عنه)

وروى البخاري عن بلال أن ليلة القدر هي أول ليلة من السبع الأواخـر.. أي الثالثة والعشرون أو الرابعة والعشرون.

وفي مسند أحمد رواية مرّ ذكرها أن القرآن الكريم نزل في الرابع والعشرين من رمضان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: التمِسوها في العشر الأواخر من رمضان ليلةَ القدر.. في تاسعةٍ تبقى.. في سابعةٍ تبقى.. في خامسةٍ تبقى. (البخاري، كتاب فضل ليلة القدر)

وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: أنها ليلةُ سبع وعشرين. (مسلم، كتاب الصيام)

وعن عبد الله بن عباس ومعاوية وعبد الله بن عمر أن ليلة القدر هي السابعة والعشرون من رمضان. (ابن كثير)

وقال ابن عباس: دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر. (ابن كثير)

وعن عبادة بن الصامت أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ التمِسوها في العشر الأواخر فإنها وتر: في إحدى وعشرين أو ثلاثٍ وعشرين أو خمسٍ وعشرين أو سبعٍ وعشرين أو تسعٍ وعشرين أو في آخر ليلة. (مسند أحمد: مسند الأنصار ﷺ، حديث عبادة بن الصامت ﷺ)

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ أو في آخر ليلة. (البخاري، كتاب التراويح، باب تحري ليلة القدر)

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى رَجُلانِ مِن المسلِمينَ، فَقَالَ: خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى فُلانٌ وَفُلانٌ فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ. (البخاري، كتاب التراويح، باب رفع معرفة ليلة القدر)

فهناك اختلاف كثير في هذه الروايات التي معظمها من الصحاح، فكل من الليلة الأولى والـ١٧ والـ ١٩ والـ٢١ والـ ٢٣ والـ ٢٤ والـ ٢٥ والـ ٢٧ والـ٢٩ والـ٣٠ اعتُبرتْ ليلة القدر. ويرى عبد الله بن مسعود أن ليلة القدر يمكن أن تكون أي ليلة من السنة (ابن كثير). غير أن النظرة الشاملة على هذه الرويات تكشف أن أصحَّها أنها ليلة في العشر الأواخر من رمضان خاصةً من الوتر منها.

لقد تبين من هنا أنه أيًّا كانت ليلة بداية نزول القرآن الكريم، إلا أن ليلة القدر ليست مخصوصة بتلك الليلة، بل تتبدل وتتغير من ليلة إلى أخرى، وتكون في

العشر الأواخر من رمضان. ذلك أنه إذا كانت ليلة نـــزول القرآن هي ليلة القـــدر حتمًا، فما كان للرسول ﷺ أن يقول: قد أُخبرت بليلة القدر ولكنني نسيتها بسبب خصام فلان وفلان، لأن القرآن قد نزل على النبي ﷺ، ولا بد أن يحفظ ليلة نزولـــه، ولو سلمنا جدلاً أنه كان نسيها فإنه قد علم من هذه الآية أن ليلة القدر ليـــست إلا ليلة نـــزول القرآن الكريم وهي ليلة واحدة، فلماذا قال تحرّوها في الليالي الفلانيـــة؟ هذا أولاً. وثانيًا: لقد أُخبرَ النبي ﷺ مرة عن ليلة القدر، وقد ظهـــرت في الحاديـــة والعشرين ومع ذلك ظل يقول للناس: تحرَّوها في العشر الأواخر، مع أنها لو كانـــت ليلة محددة لأخبرهم كل مرة أنها الحادية والعشرون من رمضان. فثبت من ذلك: ١- أنه ﷺ لم يعتبر ليلة نـــزول القرآن ليلة القدر على الدوام بصورة حتمية، ٢- وليس هذا فحسب، بل لم يعتبر أيًا من الليالي الأخرى ليلة القدر دائمًا، بل كان ﷺ يـــرى أن ليلة القدر قد جُعلت ذكرى لنـــزول القرآن الكريم، وهذه الذكرى وإن كانت قد جُعلت مخصوصة بالعشر الأواخر لكنها لم تُجعَل مخصوصة بليلة نـــزول القرآن.

والسؤال الآن: لماذا فُعل هكذا؟ الجواب: رغم أن هذه الآية جُعلـــت ذكـــرى لنـــزول القرآن، إلا أنها لم تحدَّدْ للفائدة الواسعة كما هو دأب القرآن الكريم. ذلك أن تحديد يوم قريب من اليوم الحقيقي لحادثٍ احتفالاً بذكراه ينفع نفس النفع الذي يتحقق في الاحتفال به في يومه الحقيقي، ولكن الله تعالى لو خصص ليلةً واحـــدة على الدوام للاحتفال بذكرى نزول القرآن لم يهتم المسلمون بالعبادة كما يهتمون في حالة عدم تخصيص هذه الليلة. فالله تعالى قد جعل نفعا زائدا بجعـــل ذكـــرى نـــزول القرآن في ليلة من العشر الأواخر، وهو أن يعبد المسلمون الله تعالى بحماس زائد عشرَ ليال بدلاً من ليلة واحدة. لو حدَّد الله تعالى ليلة القدر لفرح الـــضعيف بعبادة ليلة واحدة، أما الآن فيهتم بالعبادة عشر ليال على الأقل، آملاً أن تكـــون هذه الليلة أو تلك هي ليلة القدر، وهكذا تتاح له فرصة التدبر في ذكرى نـــزول القرآن الكريم وبركاته لعشر ليال بدلاً من ليلة واحدة. سيقول في كل ليلـــة مـــن العشر الأواخر لعل هذه هي ليلة القدر، وبالتالي ينتقل ذهنه إلى نـــــزول القـــرآن الكريم وبركاته. ولا شك أن هذه بركة عظيمة وفائدة روحانية كبيرة.

أما الحكمة في تحديد ليلة القدر في العشر الأواخر فهي أن الإنسان لا يكافأ على خدمته إلا في النهاية.

لقد بينتُ حتى الآن أن ليلة القدر المذكورة في الأحاديث أيضا ذاتُ صلة –من جهة– بليلة القدر التي نزل فيها القرآن، وعليه فإن ليلة القدر الحقيقية هي تلك الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن، وإحياءً لذكراها وتجديدًا للعهد الذي عهده الله تعالى مع هذه الأمة بنزول القرآن قد جَعَلَ ليلةَ القدر، وجَعَلَها مخفيةً في العشر الأواخر لكي ينتفع الضعاف من الأمة بالإكثار من العبادة في عشر ليال على الأقل، لكي لا يصبح القيام بهذه الليلة مجرد عادة وتقليد فحسب –الأمر الذي يكرهه الإسلام جدًّا– فالآن بوسع كل إنسان أن يبحث عن هذه الليلة في العشر الأواخر من رمضان. وأي شك في أن الذي يبحث عن فضل الله تعالى في عشر ليال سوف يزداد حبًا للدين ورغبةً فيه، ويكفّ عن أخطائه وينيب إلى الله كلية، وهكذا سوف تصبح كلُّ ليلة له ليلةَ القدر في الأخير.

وأما ما روي عن عبد الله بن مسعود وغيره من صلحاء الأمة أن ليلة القدر يمكن أن تظهر في أي ليلة من السنة، فإنما معناه أن ليلة القدر بالنسبة إلى كل فرد يمكن أن تكون في أي وقت من السنة، وليس المراد من قولهم أن ليلة القدر لا تكون في رمضان، إذ ورد في روايات أخرى قولهم إن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان. وكيف يمكن أن نتصور أن عبد الله بن مسعود يرفض قول النبي ﷺ إن ليلة القدر في العشر الأواخر؟ فهذا لا يتوقع من الصحابة البتة. فقوله بأن ليلة القدر يمكن أن تكون أي ليلة من السنة إنما يعني ليلةَ القدر التي تكون بالنسبة إلى أي فرد والتي يمكن أن تكون أي ليلة من السنة، ولا يعني ليلةَ القدر التي هي للأمة، والتي قد أخبر عنها الرسول ﷺ أنها تكون في العشر الأواخر من رمضان.

الواقع أن كل مؤمن يأتي عليه زمن البلوغ الروحاني، إذ لا يكون الجميع كاملين في الروحانية منذ ولادتهم، بل معظم الناس لا يبلغون البلوغ الروحاني إلا في وقت من الأوقات بعد البلوغ المادي؛ فبعضهم يصلون البلوغ الروحاني في شبابهم، وبعضهم في كهولتهم، وبعضهم في شيخوختهم، وبعضهم في آخرها. فالليلة التي

يحكم الله تعالى فيها في حق مؤمن أنه صار الآن من أهل الجنة قطعًا هي ليلة القدر بالنسبة له ولا يُشترط لذلك رمضان، إذ يمكن أن تأتي عليه ليلة القدر في أي وقت من السنة. إن الله تعالى رحمان ورحيم، وهاتان الصفتان الإلهيتان تتجليان كل لحظة، فكان لزامًا أن تكون هناك طريقة أخرى -علاوةً على المناسبات الخاصة- لنزول أفضال الله في كل حين وآن، وليست هذه الطريقة إلا نزول الأفضال الإلهية بصورة فردية، وهكذا تأتي ليلة القدر بالنسبة لمؤمن في وقت وبالنسبة لآخر في وقت آخر، وبالتالي تتنزل أفضال الله على عباده الصالحين كل يوم طوال السنة، كما تتنزل على الأمة كلها في ليلة واحدة من العشر الأواخر من رمضان نزولاً جماعيا في ذكرى نزول القرآن. وتلك هي ليلة القدر الكبرى.

وهنا ينشأ سؤال: لا شك أن تحديد ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان طريق حسن لمكافأة المؤمنين ولإذكاء روح العبادة فيهم، ولكن لماذا إذن قال الرسول ﷺ مرةً: تحرَّوها في العشر الأواخر، ومرةً أخرى: إنها في الحادي والعشرين، وتارةً: إنها في الرابع والعشرين، وتارة أخرى: ابحثوا عنها في الوتر من الليالي؟ لماذا قام بتعيينها؟

الجواب: القاعدة الأساسية عن ليلة القدر أنها في العشر الأواخر وتتغير من ليلة إلى أخرى، غير أن الله تعالى يمنح المؤمن علمًا خاصا بها أحيانًا كما أخبر الله رسوله ﷺ مرة بأن علامتها أنه سينزل المطر فيها حتى يدلف السقف، فوقع هذا في الـ ٢١ من رمضان، فظن الصحابة الذين علموا بذلك أن ليلة القدر إنما تكون في الـ ٢١ دائمًا، مع أنها كانت في الـ٢١ من رمضان في ذلك العام فقط. وكذلك أُخبر النبي ﷺ عن ليلة القدر في مناسبة أخرى، لكنه أُنسِيَها، وقال إنها في الوتر من الليالي الأُخر، لا سيما في السابع والعشرين.

إذن ففيما يتعلق بكون ليلة القدر في العشر الأواخر فهذه قاعدة ثابتة، ولكن فيما يتعلق بإشارة الرسول ﷺ وبعض الصحابة وصلحاءِ الأمة إلى ليلة معينة من العشر الأواخر، فكان هذا خاصًا بتلك السنة فقط، وقد عرفوها بناءً على علمهم السماوي أو الوجداني، ولا يعني ذلك أنها تكون في تلك الليلة دوما.

وهنا ينشأ سؤال طبيعي: هل هناك علامة يعرف بها المرء أن هذه الليلة من رمضان هي ليلة القدر؟ والجواب: أنه قد ورد في بعض الأحاديث بعض العلامات مثل: لمعان البرق، وهبوب الريح، ونزول المطر ورؤية نور صاعد ونازل بين السماء والأرض (الزرقاني: المجلد ٧، باب النوع الخامس في ذكر اعتكافه ﷺ). لكن العلامات الثلاث الأولى ليست ضرورية، وإن كان هذا قد حدث مرارًا. أما العلامة الأخيرة وهي رؤية نور، فقد جرّبها بعض الصلحاء، ولكنها مشهد من الكشوف وليست علامة ظاهرة حتى يراها كل شخص. لقد جربت ذلك بنفسي، مع أن ما رأيتُه لم يره غيري. والطريق الأمثل إنما هو أن يظل المؤمن يدعو الله تعالى طوال رمضان ويصوم بإخلاص، ولسوف يتجلى الله عليه بليلة القدر بطريق أو آخر.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٣﴾

التفسير: أي أن ما نقصده من ليلة القدر يفوق تصوركم، بمعنى أن غاية ما يحصل بسماع لفظ الليلة أن عقل الإنسان ينتقل إلى الظلام، ولكننا نقصد من ليلة القدر ليلة تنطوي على بركات لا نهاية لها وعظمةٍ لا يسمو إليها العقل الإنساني عادة. وهكذا فقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ قد وسّع المعاني جدًّا إذ معناه أن تلك الليلة تفوق حدّ القياس والفهم.

لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

شَهْر: الشهر: شَهَرَه: أظْهَرَه. والشهر مصدر. والشهر: القمر، وقيل: هو إذا ظهر وقاربَ الكمالَ. والشهر: جزءٌ من ١٢ جزءًا من السنة. والشهر: العالِمُ لشهرته. (الأقرب)

التفسير: من معاني الشهر الإظهارُ، يقال: شَهَرَهُ أي أظْهَرَه، وعليه فقوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني أن ليلة القدر خير من ألف إظهار.

ومعروف أن الليلة تنشر الظلام وتخفي الأشياء عن الناس، بينما يقول الله تعالى هنا إن الليلة التي نتحدث عنها هي ليلةٌ من حيث انتشار آلاف الفتن فيها من إلحاد شديد وزندقة وغيرها، ولكن ستتوافر في تلك الليلة شتى الأسباب لإظهار جلال الله ومحاسن الفطرة الإنسانية بشكل محير، ولذا فإنها خير من ألف إظهارٍ وكشفٍ لما في هذه الليلة من قوًى خفية، لأن الإظهار والكشف الذي يوضع له أساسٌ في هذه الليلة لا يعادله أي إظهار وكشف. فرغم أنها ليلة، إلا أنها لا مقارنة لها.

والمعنى الثاني أنها زمنُ ليلةٍ للمؤمنين حيث يتعرضون لصنوف الأذى من ضرب وقتل وغيرهما، ولكن تكون آلامهم وشدائدهم فيها أفضلَ قدرًا من الراحة التي يجدون في المستقبل لأنها ليلة القدر. اليوم إذا آمن أحد بمحمد تعرّضَ للطعن والتشنيع وفَقَدَ عزّته وصار أسوأ الناس في أعين القوم، ولكن المتعةَ التي يجدها المؤمنون في هذا الذلِّ والهوان، والسرورَ الذي يجدونه في هذه التضحياتِ، والراحةَ التي يجدونها في هذه الآلام، لن يتمتع بها الناس زمن رقي الإسلام.

كان أبو بكر ﷺ رجلاً شريفا في قومه، وكانوا كلهم يثنون عليه ويحترمونه ويجلّونه، لكنه لما آمن بمحمد رسول الله ﷺ أخذ الجميع يسبّونه ويعيبونه ويهينونه وقالوا إنه قد فسد. كان عليّ ﷺ طفلاً طيّبًا وكان أبوه من رؤساء العرب، لكن حين آمن بالرسول ﷺ قال الناس يجب قتل هذا الولد، فقاطعوه وسبّوه وأذلّوه، فرحين بفعلهم هذا. وكان عمر ﷺ شابا وكان القوم يعتبرونه أفضلَ مؤرخ لأنساب العرب، فإذا حضر مجلس كبار قومه أجلسوه في صدر المجلس بعزة وإكرام، ولكنه حين آمن بالرسول ﷺ عابه الجميع، وبدلاً من الثناء عليه، حاولوا النيل منه فرحين بإيذائه. ولما آمنَ مِن اليهود عبدُ الله بن سلام ﷺ، أراد النبي ﷺ اختبارهم فجمعهم وقال: ما ترون في عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابنُ سيدِّنا، وأعلَمُنا وابنُ أعلَمِنا. فقال ﷺ: اسمعوا، لقد أسلم عبد الله بن سلام. فلم

يلبثوا أن قالوا: هو شرُّنا وابنُ شرِّنا. (البداية والنهاية: سنة ١ هجرية، ج ١، فصل في إسلام عبد الله بن سلام)

باختصار، يقول الله تعالى إننا أنزلناه في ليلة القدر، وهذه الليلة سوف تُخفي العزة الظاهرة للناس كليةً. يكون الناس صلحاء شرفاء ذوي صيت، لكنهم بعد الإيمان بمحمد ﷺ سوف يخيّم عليهم الليل، فيُخفي عزتَهم وصيتهم وصلاحهم، فيطعن فيهم القوم ويعيبونهم. ولكن لا تظنوا أن هذه الليلة المظلمة ستسبب لهم الخزي حقيقةً، بل إنَّ هذا الخزي والأذى من أجل النبي ﷺ وفي معيته هو أكثر بركةً وأفضل من أي عز وصيت. سيأتي بعد هذه الليلة زمن العزة والصيت، فسينال الناس رفعة وعزة وثروة كثيرا بسبب الإسلام، ولكنهم مع عزهم ورفعتهم وأموالهم لا يساوون شيئًا أمام هؤلاء الذين يُضربون اليوم بالنعال. وبالفعل قد عزَّ الناس وشرفوا في دينهم ودنياهم ببركة الإسلام وبتأثيره، ولكن متى يمكنهم أن يبلغوا شأْوَ أولئك الذين خُلقوا في هذه الليلة. كم بلغ من الرفعة والصيت الإمامُ أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والسيد عبد القادر الجيلاني، ومعين الدين الجشتي، وشهاب الدين السهروردي، ومحيي الدين بن عربي والنقشبندي والإمام الغزالي، حتى إن الملوك كانوا يفتخرون بحمل نعالهم، ولا جرم أنهم ما نالوا هذا العز والشرف إلا بالإسلام، وبالمقابل تعرّضَ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بل وسيدهم وسيدنا محمد ﷺ كلهم للسباب والشتائم وللضرب وللإهانة في زمن ليلة القدر، ولكن هل يمكن لأحد أن يقول إن زمن هؤلاء الصلحاء كان أفضل من زمن أولئك المسلمين الأوائل؟ والله، لو قيل لهؤلاء الصلحاء أن يُحرَموا من كل ما نالوه من عز ورفعة وصيت في حياتهم كلها مقابل أن يُضرَبوا ساعة واحدة على باب محمد ﷺ لماتوا فرحًا وصرخوا: يا لها مِن صفقة رابحة!

هذا هو الموضوع الذي تبيّنه هذه الآية حيث يخبر الله تعالى: تظنون أن الزمان الذي أتى على محمد وأتباعه تعيس جدًا. فاسمعوا أيها المستمعون، لا شك أنه زمن سيئ إذ بلغ الظلم فيه منتهاه، لكن اعلموا أن هذه الليلة المظلمة هي ليلة القدر، والعزة التي ينالها الإنسان فيها لأفضَلُ من كل عزّة! والذين سيبلغون ذروة المجد في

المستقبل سيؤثِرون ساعة واحدة من هذه الليلة المليئة بصنوف الأذى والآلام مضحّين بمئات السنين من حياتهم الكريمة. وهذا ما حصل بالضبط وتحققت هذه النبوءة القرآنية حرفيًا، فمن ذا الذي لا يتمنى منا أن يُضرَب بأيدي الكفار على باب محمد ﷺ من أجل الإسلام ويستمتع بسماع سباب الكفار وأقبح شتائمهم. فما أصدقَ ما قاله أصدقُ القائلين ﷻ ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾!

والحال نفسه بالنسبة للناس الماديين، فإن المؤمنين في زمن النبي هم الذين يتعرضون لأنواع الشدائد والمحن، أما الذين يأتون بعدهم فيجنون ثمار ما زرعه الأوائل. يمكن أن تتصور كَمْ كان بنو العباس أو بنو أمية يتباهون متكئين على عروشهم قائلين: أتعرفون من نحن؟ نحن رؤساء العرب! نتمتع بكذا وكذا من الحقوق، فما قيمة الناس أمامنا؟ لكن السؤال: من أين نال هؤلاء المُلك؟ لقد كان هذا المُلك ثمرة الشجرة التي غرسها أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وغيرهم من الصحابة الكرام. لا شك أن هؤلاء الصحابة لم يأكلوا ثمار تضحياتهم، لكن من هو الأكرم عند الله، أعَبْدُ المَلِكِ وهارون الرشيد أم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير –رضوان الله عليهم أجمعين؟ دَعْك مِن هؤلاء الصحابة العظام، فإن الواقع أن أبا هريرة ﷺ الذي كان يتعرض للجوع والفاقة أحيانًا، لهو أفضلُ عند الله تعالى من هؤلاء الملوك الأمويين والعباسيين. بل دَعْك من أبي هريرة ﷺ، فإن بلالاً لهو أفضل من هؤلاء الملوك. لقد كان عبدًا من العبيد لكن كان له عزّةٌ قبل الإسلام، ولكنه لما أسلمَ خَفِيَ على الناس صالحُ أعماله وخصاله، فعابوه وسبوه وآذوه، ولكن هذه المحن نفسها قد كتبت له من العظمة بحيث لو أن هارون الرشيد أو عبد الملك مُنِحَ فرصةَ تكنيس بابه لكان هذا أعزَّ وأشرفَ له من المُلك.

من البديهي أن كل مَن آمن بمحمد ﷺ أو بأي نبي آخر إنما نال هذا الشرف لخيرٍ فيه، وإلا فمتى يستعدُّ الإنسان للتضحية إذا لم يكن فيه خيرٌ فطري، لكنا نرى على صعيد الواقع أنه كلما آمن المرء بنبيٍّ نسي الناس ما فيه من خير وغضّوا الطرف عما فيه من أخلاق سامية وخصال حميدة، حتى صار من الأذلّة المهانين في أعين الدنيا.

لا شك أن الملوك سيدخلون في جماعتنا أيضًا في يوم من الأيام كما يتضح من نبوءات المسيح الموعود عليه السلام، وسوف تحقق جماعتنا من التقدم والازدهار بحيث تصبح جميع الأديان والمذاهب ضئيلة الشأن جدا إزاءها، ولكن مهما نال علماء الجماعة عندها من عظمة وعزّ ومجد فإنهم – لو كان فيهم ذرة من الإيمان– لن يقيموا لمجدهم وزنًا مقابل الذل والهوان الذي يتعرض له بعض الأحمديين اليوم نتيجة انضمامهم إلى الأحمدية. وعندي أن الإمام أبا حنيفة والإمام مالكًا والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم لو سئلوا في أوج مجدهم: أتحبّون أن يُنزع منكم مجدكم وعزكم لتقوموا مقام أبي هريرة، لقالوا بلا توقف: نعم؛ ذلك برغم أن أبا هريرة رضي الله عنه هو ذلك الصحابي الذي كان في بعض الأحيان يسقط مغشيًا عليه من شدة الفاقة فكان القوم يضربونه بالنعال ظنًا منهم أنه قد أصيبَ بنوبة من الصرع؟

إذن، فقول الله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني أن الناس مهما نالوا من عزّ ومجد وشوكة في المستقبل، فلا قيمة له مقابل هذه الليلة. لا شك أننا نسمي هذا الزمن ليلةً من حيث خمول ذكرهم وهوانهم، لكنها أعظمُ من كلّ مجد وصيت وظهور.

ثانيًا: ومن معاني الشهر العالِمُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يعني أن المعارف والعلوم التي انكشفت في هذه الليلة أفضل من معارفِ ألفِ عالِمٍ. وأي شكٍّ في أن المعارف التي أظهرها الله بالقرآن في عصر نبينا ﷺ الذي كان أكثرَ العصور ظلمةً وإلحادًا، والعلوم التي أجراها أنهارا لا يستطيع ألف عالم أن يأتي بها. من دأب المسيحيين أن يقولوا أن القرآن الكريم نُقِلَ عن الكتب السابقة، فأقول ردًّا عليهم: لماذا لا يجتمع علماؤكم كلهم ويأخذون من القرآن ومن الكتب التي نقل منها ما شاءوا من المعارف ويؤلفون بها كتابًا أفضل من القرآن الكريم؟ إن الكتب التي نقل منها القرآن موجودة والقرآن موجود، والعلوم التي انكشفت فيما بعد أيضا معلومة، فعندكم فرصة أفضل مما كان عند محمد، فلماذا لا تستغلّونها لتقضوا على الإسلام دون أن تحتاجوا إلى أي دليل آخر. لكن المشكلة أن الادعاء سهل، والإنجاز صعب. الحقيقة أن المعارف التي كشفها الله تعالى في ليلة القدر هذه

لا يقدر علماء العالم كله على الإتيان بمثلها، علمًا أن قول الله تعالى إن ليلة القدر خير من ألف عالم لا يعني أن ١٥٠٠ عالم أفضل من ليلة القدر. الواقع أنه لم يكن عند العرب عدد فوق الألف، فكانوا يذكرون الألف في غاية الأشياء (القرطبي)، وتبعًا لهذا استخدم القرآن الكريم أيضًا عدد الألف هنا، والمراد أنه لو اجتمع العلماء بأعداد لا حصر لها، فلن يستطيعوا أن يأتوا بمعارف كالتي تضمّنها الوحي الذي نزل في ليلة القدر، أو التي بيّنها النبي ﷺ الذي نزل في ليلة القدر، أو يبيّنها المأمورون الذين يبعثهم الله تعالى في المستقبل في أزمنة مظلمة مماثلة.

وعليه فكان هذا تنبيهًا ربانيًا للمسلمين بأنه كلما أتى على الإسلام زمن المصائب فعليهم ألا يثقوا بعلماء الظاهر لنصرته، بل ينبغي أن يتطلّعوا إلى الوحي الذي ينزل في أزمنة مظلمة كهذه، لأن ما يحققونه بنصرة السماء وهديه لن يحققوه بجهود علماء الظاهر كلهم. ولكن المؤسف أن المسلمين لم ينتفعوا بالهدي الذي نزل في هذا العصر من السماء نصرةً لهم. الحق أن هذا الزمن أشد ظلمة من كل زمن، إذ لم يأت على الإسلام بعد الزمن النبوي عصرٌ هو أشدّ محنة عليه منه، ولكن المسلمين يعتمدون على الناس أكثرَ من ثقتهم بالله تعالى لدفع هذا البلاء. لقد بعث الله فيهم مأمورا من عنده تحقيقًا لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وغيرها من البشارات القرآنية، لكنهم لا يتوجهون إلى ما يقول لهم، بل يعتمدون على ما اخترعوه من حلول من عندهم. فالله يرحمهم!

ثالثا: أن يكون الشهر هنا بمعناه المعروف، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أن الزمن الذي نزل فيه القرآن أو محمد رسول الله أو الزمن الذي ينزل فيه أظلاله ﷺ الكاملون خيرٌ من ألف شهر، أي خير من جميع العصور الأخرى.

لقد ذكرت آنفًا أن العرب كانوا يستخدمون عدد الألف لما لا نهاية له، وعليه فمعنى الآية: أن الزمن المشار إليه أفضلُ من شهور بلا عد ولا حساب، فلا يباريه أي زمن لا في الماضي ولا في المستقبل.

وهناك طريفة عند العرب عن عدد الألف تبين لنا معنى ألف شهر. يقال أن ملِكًا قال لبدوي: سَلْ ما تريد. فقال: أَعْطِنِي ألف دينار. فقال الملك: زِدْ. فقال البدوي: هل فوق الألف شيء؟

رابعًا: إذا أخذنا الألف بالمعنى المعروف، فينطبق هذا المعنى على أظلال النبي ﷺ غير الكاملين، لأنه ﷺ بشَّرَ بظهور أظلاله غير الكاملين أو المجددين على رأس كل مئة سنة، وألفُ شهر يساوي ٨٣ عاما وثلث العام، وعند انقضاء هذه المدة من القرن يأتي رأسها، وعليه فالمراد من هذه الآية أننا سنظلّ ننزل القرآنَ والرسولَ ﷺ وتعليماتِه في صورة مجددين على رأس كل قرن، وأن زمن بعثة كل مجدد يكون خيرًا من ٨٣ سنة من القرن.. أي أن البركات التي ستنعم بها الأمة تحت رعايتهم لا يمكن أن تنالها في غيابهم.

خامسًا: المعنى الخامس لقوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ هو أن الزمن الذي هو زمن تطبيق تعاليم الإسلام ورواجها حقًّا لأفضلُ من الأزمنة الأخرى كلها.

نجد البعض يعترضون على الإسلام برؤية انحطاط المسلمين وتَرَدِّيهم قائلين: لا تملّون من الثناء على الحكومة الإسلامية وتقولون إنها ترسي المساواة العالمية، وتحافظ على حقوق الفقراء وتهيئ لهم فرص النهوض والرقي، وتُقدِّم حلولاً للأزمات، وتوطّد السلام العالمي، ولا تدع الثروة تجتمع في أيدٍ محدودة، فأين ذهبت هذه الحكومة؟ إذا كانت هذه الحكومة قد استمرت ٣٠ سنة ثم انتهت، فما الفائدة منها؟ والحق أن قول الله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يمثل ردًا عليهم حيث بين الله تعالى أنّ قيام هذه الحكومة ولو يومًا واحدا- دَعْك من ٣٠ سنة- خيرٌ من العصور كلها، إذ غرستْ بذرةَ الخير وقدّمتْ نموذجًا له. وإذا كانت هذه الحكومة قد زالت في الظاهر فلا يقدح ذلك فيها، لأن الدنيا عندما تصحو من سباتها ستضطر لإقامة الحكومة على نفس الأسس التي رفعها الإسلام قبل ١٣ قرنا. فلولا هذه الحكومة النموذجية، فماذا عسى أن تفعل الدنيا لرقيها؟ كان من المحتم أن تتيه في الظلمات ولن تجد حلاً لمشاكلها. لا شك أن الحكومة الإسلامية لا توجد اليوم في العالم، لكن نموذجها موجود بلا شك، وكلما فكّرت الدنيا في تغيير

حالتها وأحسَّت بضرورة ذلك وجدت أمامها نموذج الحكومة الإسلامية التي كانت قائمة قبل ١٣ قرنا نموذجًا للحكم الإسلامي وقالت هلمّ نؤسس الحكم على طرازها، وهكذا سيسطع النور في العالم ثانية من خلال ذلك الحكم النموذجي وتجد الدنيا حلاً لمشاكلها.

فالله تعالى يعلن هنا أن هذه الليلة – أي عصر الحكم الإسلامي النموذجي – لن تقلّ قدرًا بسبب فساد المسلمين بعد الزمن النبوي، بل هي خير من ألف شهر، وذلك لأنه قد وضع فيه نموذج الحكم الإسلامي الذي سيظل منارًا للهدى يرشد الناس ويقدّم لمشاكلهم حلولاً كاملةً إلى يوم القيامة. وبما أن هناك ٣٠ ألف ليلة في ألف شهر، فيكون المراد من قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: تسألون عن خيرات ذلك العصر! فاعلموا أنه خير من ٣٠ ألف عصر! أي حتى ولو جاء بعد عصر النبي ﷺ ٣٠ ألف عصر من الظلمات، فأيضًا لن يفقد الزمن النبوي قيمته، بل يُعتبر أفضل من كل العصور القادمة، لكونه قد وُضع فيه نموذج الحكم الإسلامي.

لا جرم أن المعنى الذي ذكرتُه آنفًا يشرح ليلة القدر على اعتبارها الزمنَ النبوي، ولكن إذا اعتبرنا ليلة القدر إشارةً إلى تلك الليلة المعروفة، فماذا سيعني قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، إذ توجد في ألف شهر ٨٣ ليلة من ليالي القدر.

لا شك أن ليلة القدر تأتي كل عام في رمضان، ولكنها لا تتيسر لكل شخص، بل الذين يعبدون الله تعالى بالتقوى والصلاح حقًا هم الذين يحظون بها وذلك في حالة خاصة من ذروة الخشوع والخضوع.. أعني لا شك أن بركات ليلة القدر العامة تعمّ المسلمين جميعا كل عام، لكن ظهورها الكامل الذي يُشعِر المرءَ أنها هي ليلة القدر لا يتيسر إلا للخواص من عباد الله تعالى، كما أنها لا تتيسر لهم دائمًا بل أحيانا. إن هذه التجربة لا تتيسر للمسلمين ذوي الدرجة المتوسطة إلا مرة أو مرتين في العمر كله. وإشارةً إلى هذا الأمر قال الله تعالى إن الذي تيسرت له ليلة القدر ببركة اتّباعه للنبي ﷺ فليعلمْ أن حياته كلها موفقة مباركة. فبتقدير عمر الإنسان بـ٨٣ سنة (ألف شهر) قد بين الله تعالى أنه يجب أن يدرك مثل هذا الإنسان أن هذه الليلة أفضل من عمره كله، وأنه مِن أجل هذه الليلة قد قضى حياته، وأنها خلاصة حياته ولبّها.

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا أمرًا إضافيًا بأنه لا ينـــزل في هذه الليلة الوحي فقط، بل تنـــزل معه الملائكة والروح أيضا. والروح يعني الوحيُ وكذلك المَلَـــكُ الذي ينـــزل به (الأقرب)، ولكن حيث إن الوحي ونزوله قـــد ســـبق ذكـــره في الآيات السابقة، فليس المراد من الروح هنا المَلَك الذي ينـــزل بالوحي، بل له معنى آخر سنبيّنه لاحقا.

يخبر الله تعالى هنا أن مِن سنّتنا أننا حين ننـــزل وحْينا على مبعوث من عنـــدنا ننـــزل معه الملائكة أيضا إلى الأرض، والمراد من الملائكة هنا أولئك الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم. وكأن الله تعالى يعلن أننا لم ننـــزل كلامنـــا علـــى محمـــد فحسب، بل أنزلنا معه فوجًا من الملائكة على الأرض لتأييده، أو المعنى أن المأمورين الذين سيُبعثون في المستقبل لخدمة القرآن وإحياء الإسلام لن يأتوا وحـــدهم، بـــل سوف تنـــزل معهم ملائكة السماء دائما لتؤيدهم وتنصرهم وتسيِّر أمورهم. فلا تظنوا، أيها الكافرون، أنكم ستهزمون هؤلاء المأمورين بحيلكم ومكائدكم، كـــلا، إذ تَصْحَبهم ملائكتنا الذين لا يقدر الإنسان على مقاومتهم. فعندما أرسل الله آدم عليه السلام أمر الملائكة بأن يسجدوا له، أي يسخّروا له كل ما هو تحـــت تـــصرُّفهم، كذلك كلما بعث الله مأمورًا من عنده أنزل معه فوجًا من الملائكة وأمرهم بـــأن يؤيدوه ويُحدثوا في الأرض انقلابًا يساعد على ازدهاره وانتصاره.

ثم يخبر الله تعالى أنه لا ينـــزل لتأييد المأمور من السماء الملائكة فحسب، بـــل ينـــزل الروح أيضا. والمراد من الروح هنا الروحانية والحياة الجديدة التي تُـــنفخ في قلوب الناس. فكأن الله تعالى يعلن هنا أن الناس كانوا بدون روح قبل بعثة محمد. كانوا أحياء في الظاهر، لكن أسوأ من الموتى في الواقع، إذ لم يكن فـــيهم حمـــاس للعمل، ولا إحساس بالرقيّ، ولا عاطفة من الشرف والإنسانية. فلما جاء محمـــد (ﷺ) بدأ الله تعالى بإيقاظ الفطرة الإنسانية النائمة عن طريق الملائكة، كما نفخ في أولئك الأموات روح الحياة، فعادت إليهم الحياة ببركة محمد، وتحركت هذه الجثث

التي كانت بلا حراك، حتى صار هذا الشعب المحكوم المقهور منذ قرون فاتحًا للعالم وحاكمًا عليه. لم يكن للعرب عزّ في الدنيا، بل كان العالَم المتمدن المتحضر يزدريهم، ولكنهم لما أسلموا وآمنوا تَقدّموا تقدُّمًا مذهلا، لأن إيمانهم بمحمد رسول الله ﷺ أحدث فيهم صحوة وأجرى دم الحياة في هؤلاء الموتى، فأحدث هؤلاء القوم ثورات عظيمة في العالم، حتى قلبوه رأسًا على عقب. يقول الله تعالى هكذا سيحدث بعد محمد رسول الله أيضا، فكلما نزل كلام الله بعده ﷺ نزلت معه الملائكة التي تنفخ في القلوب روحانية وصحوة وإخلاصا وتضحية تُذهِل العالَم. سوف يُشحن الناس بروح جديدة للحياة، فيضربون أمثلة رائعة للإيمان والإخلاص. وهذا ما سيحدث في هذا الزمن أيضا كما يتضح من نبوءات المسيح الموعود عليه السلام، حيث تنفخ الحياة في المسلمين الذين أصبحوا قلة رغم كثرتهم، وجهالاً رغم علمهم، وأمواتًا رغم حياتهم. هذه هي الروح التي يقال أن المسيح عليه السلام كان ينفخها في الأموات، وهذه الروح التي قد أشير إليها في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٥).

باختصار، يقول الله تعالى إن الملائكة ستنزل الآن لتُحدث في العالم انقلابات مؤيدة لمحمد ﷺ من ناحية، ومن ناحية أخرى سننفخ في أتباع محمد ﷺ روحًا جديدة للانتفاع من هذه التغيرات، حتى إذا وقعت هذه الثورة في الدنيا استولوا على العالم. وهذا ما سيحدث في المستقبل أيضا، فستنزل ملائكة الله من جهة، ومن جهة أخرى سينزل قدر رباني خاص، فيُنفخ في قلوب المؤمنين صحوة جديدة وحياة جديدة وحماس جديد وعزم جديد.

لقد رأيت في الرؤيا مرة أن حولي جمعًا هائلا من الناس لا يمكن حصرهم، وأنا أخطب بينهم وأقول: إذا لم يكن المسيح الموعود عليه السلام نبيًّا، فأَرُوني شخصًا واحدا لم يكن من الأنبياء ومع ذلك خلف بعده جماعة من العلماء الذين يتلقون من الله تعالى علمًا لَدُنِّيًّا ويفهمون كلام الله تعالى (أي القرآن الكريم) حق الفهم. وكنت أركّز في الرؤيا على هذا الأمر تركيزًا خاصا وأقول: إن النبي هو الذي يقيم جماعة تتمتع بحياة جديدة وقوة جديدة للترقي والازدهار، جماعة تكون على صلة مع الله

تعالى وتتعلم منه المعارف التي ينطوي عليها كلامه ﷻ، ثم تنشرها وتشيعها في العالم (جريدة الفضل، ٩-٣-١٩٤٥).

هذا هو الأمر الذي بيّنه الله تعالى في هذه الآية بأنّه كلما بُعث نبي في الدنيا نفخ في جماعته روحًا لا نظير لها عند الآخرين.

أما قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فيمكن تفسيره بطريقين:

أوّلهما: باعتبار الباء متعلقًا بالتنزل، أي: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ومعهم إِذْنُ رَبِّهِمْ، بمعنى أنها تنزل ومعهم حُكمُ ربهم للناس بأن يهبّوا بحماس لتأييد كلام الله ونصرته.

وثانيهما: اعتبار قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ حالاً لقوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، أي لا يكون نزولهم إلا بإذن الله تعالى، بمعنى أن مثل هذه الثورة لا تقع بدون إذن الله وأمره وإنما تتم إذا أرادها هو ﷻ، فليس من شأن علماء الظاهر أن يُحيوا الأمة بأنفسهم ثانيةً بعدما أصبحت جثة بلا حراك قد فارقها الروح، لأن الملائكة والروح إنما تنزل بأمر الله ومِن عنده، لذا فكلما يتم إحياء الأمة فإنما يتم من عند الله تعالى لا بتدابير البشر.

أما قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ فله معنيان: الأول: مِنْ أجل كُلِّ أَمْرٍ، أي لكل أمر، والثاني: بكُلِّ أَمْرٍ.

فالمعنى الأول لقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ هو: تنزل الملائكة من السماء من أجل إنجاز كل أمر لا بد منه لرقي الإسلام ولإزالة كل ما يعيق ازدهاره، وهكذا يحقق الله تعالى بفضله المهمة التي تبدو مستحيلة.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ هو: قد ولّى زمن الشرائع الجزئية الناقصة، إذ قد أنزل الله تعالى لهداية الناس في هذا العصر شريعته الكاملة التي حوت كل الأمور الضرورية. وهكذا فإن الله تعالى قد أعلن منذ البداية أن القرآن كتاب كامل، وأنه قد فصّل فيه كل العلوم الضرورية لرقي الإنسان تفصيلاً، فلا يَسَعُ أحدًا بعد نزول هذه الشريعة الكاملة القولُ أنها لم تسدّ كيت وكيت من حاجات الإنسان، أو أن الله تعالى لم يقدم فيها حلاًّ للقضية الفلانية. كلا، بل قد

بلغت الشريعة الآن كمالها، حيث بيّن الله تعالى في هذا الكتاب كل أمر ضروري لإصلاح الإنسان وتقدُّمه الروحاني.

أما لو طبّقنا هذه النبوءة على المجددين، فيعتبر قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ مماثلاً لقوله تعالى عن ملكة سبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾(النمل: ٢٤).. إذ المراد أنها أوتيتْ كلَّ شيء كانت بحاجة إليه. وحيث إن نطاق عمل المجددين محدود لكونهم يأتون لإزالة مفاسد معينة وفي شعبهم الخاص أو بلدهم الخاص، ويأتون حين لا يكون الفساد شديدًا متفاقمًا، لذلك فلا يكون نطاق عملهم واسعا بحيث يكونون مسؤولين عن إصلاح العالم كله أو عن إصلاح المفاسد كلها، فلذا لو طبّقنا هذه النبوءة عليهم فلا يراد من قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ الأمور كلها، بل المراد: كل الأمور الضرورية للحاجة العابرة، أي أن الملائكة تنزل من السماء لنصرة المجددين في كل أمر يتطلب إصلاحه نصرة ملائكية، أو تنزل الملائكة لنصرتهم في الأمور التي هم بحاجة إلى نصرتها من أجل رقي الإسلام. فقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ يعني في سياق المجددين: مِن كل أمر ضروري، وليس كل الأمور.

أما الموعود الذي يظهر في الزمن الأخير، فلأنه يكون نبيًا وبروزًا كاملاً للنبي ﷺ، فينطبق قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ بمفهومه الواسع، بمعنى: أننا كما فسرنا هذه الآية بخصوص النبي ﷺ بأن الشريعة الإلهية تكتمل في زمنه من كل النواحي بصورة القرآن الكريم، كذلك سوف يكون لهذه الآية معنى واسع بالنسبة إلى البروز الكامل للنبي ﷺ، وهو أنه في زمن هذا الموعود تكون جميع محاسن القرآن قد اختفت، فيُنزل الله ملائكته من السماء، فيكشف جميع محاسن القرآن على الدنيا ثانية. في هذه الحالة لا يعني قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾: مِن كل أمر ضروري، بل يعني من كل أمر من الأمور.. أي ما من أمرٍ إلا وتنزل الملائكة من أجله في زمن ذلك الموعود.

سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

سلام: يرى اللغويون أن سلام هنا بمعنى: مُسلِّمة، أي أن الملائكة تنزل وهي تسلِّم على المؤمنين، أو يُسلِّم بعض المؤمنين على بعض. ويرى آخرون أن سلام بمعنى تسليم وسلامة. ثم يختلف هؤلاء العلماء اختلافًا آخر، فمنهم مَن يرى أن الآية السابقة انتهت بقوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، وأن ﴿سلام﴾ مبتدأ لجملة جديدة كالآتي: "سلامٌ هي". ويرى الآخرون أن "سلام" متعلق بـ ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، والجملة: "مِن كل أمرٍ سلامٌ"، أما الجملة التالية فهي كالآتي: "هي حتى مطلع الفجر".. أي أن هذه الحالة ستبقى حتى مطلع الفجر.

أما الذين يعتبرون كلمة "سلام" منفصلة، فيقولون أن معناها "سلام سلام"، أي أن تلك الفترة سلام سلام، أو أن في ليلة القدر "سلام سلام" من عند الله تعالى. والذين يرون أن الجملة كالآتي: "من كل أمر سلام"، فالمعنى عندهم: أن كل أمر تنزل به الملائكة في تلك الليلة هو سلام. وأما الذين يقولون "سلام هي" فالمراد عندهم: أن نزول الملائكة سلام سلام. وهذا القول الأخير لابن عباس. (البحر المحيط، والبغوي، فتح البيان)

والحق أن كل هذه المعاني تنطبق على هذه الآية.

التفسير: انظرْ كيف أعلن الله تعالى منذ بداية الإسلام أن التعاليم التي نعرضها عليكم في القرآن الكريم إنما هي سلام لكم، ومن المحال أن يصاب العامل بها بأي ضرر اجتماعي أو عائلي أو أخلاقي أو روحاني. وإذا أخذنا هذا المعنى فالجملة تنتهي على لفظ سلام كالآتي: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ﴾، ومفهوم الآية كالآتي: التعاليم التي تنزل بها الملائكة من عندنا في ذلك الوقت لن تشتمل على الأمور كلها فحسب، بل ستتضمن السلام الكامل لكم، وتكون منزهة عن أي ضرر ونقص، ولن تقدر الدنيا على إثبات أي عيب فيها.

أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ﴾ جملةً منفصلة فمفهوم الآية هو: أن ملائكة الله تنـــزل بحُكمه من ناحية، ومن ناحية أخرى يتلقى المؤمنون رســـالة سلامتهم من كل ما تُحاك ضدهم من مكائد ومؤامرات. وكأن الله تعالى يُحدث عندها تغييرين في العالم؛ الأول: أن الملائكة والروحانية تنـــزل من السماء، والثاني: أن القوانين الطبيعية أيضا تعمل على إنجاز هذه المهمة الـــسماوية، فيجتمـــع مـــاء السماء بالأرض ويصبح نجاح النبي أمرًا أكيدًا.

وأما إذا اعتبرنا الجملة السابقة تنتهي إلى قوله ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، واعتبرنا كل ما بعده جملة منفصلة، فالمراد من الآية: تنـــزل الملائكة والـــروح بـــإذن الله تعـــالى بالشريعة كلها، ويسود السلام في ذلك العصر حتى مطلع الفجر، أي تكون تلـــك الأيام أيام نصر الله وأفضاله الخاصة.

أما إذا اعتبرنا ﴿سلام﴾ جملةً ثانية، و ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ جملـــةً ثالثـــة، فالمعنى: تنـــزل في تلك الليلة ملائكة الله والروح بجميع أنواع الأحكـــام، وهـــذا العصر، أيها الناس، سلام في سلام، ويستمر نزول الملائكة والروح القدس وانتشار السلام حتى طلوع الفجر.

فثبت من هنا أن كل المعاني التي يقترحها النحويون تنطبق هنا.

وهنا ينشأ سؤال: ما المراد من مطلع الفجر؟ فاعلم أنه يعني وقت غلبة الإسلام. وهذه الغلبة تبدأ دومًا عند وفاة النبي، ولذلك قال المسيح الموعود عليه السلام في كتابـــه "الوصية": إن من سنة الله المستمرة أنه تعالى يُري قدرتين، لكـــي يحطّـــم بـــذلك فرحتَين كاذبتين للأعداء. والقدرة الأولى تظهر من خلال النبي، حيث يبذر بـــذرة الصدق والسداد التي يريد أن ينشرها في العالم، والقدرة الثانية تظهر مـــن خـــلال اكتمال مهمة النبي على يد الخلفاء (الوصية، الخزائن الروحانيـــة المجلـــد ٢٠ ص ٣٠٥-٣٠٦). فثبت أن مطلع الفجر هنا يعني زمن وفاة النبي، حيث نبّه الله تعالى عباده المؤمنين إلى أن سلامهم كله يكمن في أن يعرفوا عظمة هذه الليلة ويـــضحوا بكل ما يطالَبون به في هذا الوقت، أما إذا طلع الفجر وانتهى زمن النبوة، فإن نعم

السماء ستبقى في السماء، ولن تستطيع الأرض أن تنال نصيبا من البركات التي تحظى بها الآن.

وجدير بالذكر هنا بوجه خاص أن زمن النبي قد سُمِّي نهارا مرة بعد أخرى، كما سُمِّي النبي شمسًا أيضا، فلماذا سُمِّي عصره ليلة القدر؟ فكيف أصبح الزمن الواحد ليلا ونهارًا في وقت واحد؟

اعلم أن الزمن الواحد سُمِّي نهارًا وليلاً من منظورين مختلفين. فزمن النبي ليلٌ من حيث الظلمة السائدة قبل ظهوره، ولأنه حين يبدّد تلك الظلمة وينهي مهمته يقول الله له: تعال، فقد حان رحيلك الآن. فمثلا لما بدّد رسول الله ﷺ ظلمات الضلال والغواية في زمنه قال الله تعالى له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(النصر:٢-٤)، وهكذا أخبره الله بقرب أجله، وقال له: سوف ندعوك إلينا الآن. فالنبي يُبعث في زمن تسوده الظلمات، ويتوفاه الله فور تبديده إياها وعند بداية زمن الأمن والنجاح والرقي، فلذلك يسمى زمنه ليلاً، إذ تنتهي مهمته كلها خلال الليل، حيث يأتي عند المحن ويرحل إلى الله تعالى فور انتهائها. فلأن الغلبة العظيمة المادية تلي وفاة النبي، وشمس الانتصارات المادية تطلع بعد مطلع الفجر دائما، لذلك يسمى زمن النبي ليلا، أما الزمن الذي تنال فيه الجماعة الإلهية غلبةً غير عادية فيبدأ بعد طلوع الفجر، أي بعد انتقال النبي إلى ربه. ولكن فيما يتعلق بالترقيات الروحانية فلا يسع أحدًا إنكار أن زمن النبي هو زمنُ الضوء والنهار، والزمن الذي يلي وفاته هو زمن الظلمة والليل. فعند بعثة نبي تبدأ سلسلة عجيبة غريبة من نزول الوحي من السماء، ويهطل مطر البركات والأنوار، وتظهر الآيات والمعجزات، وتكتمل عندها الرحلة الروحانية في أيام مع أنها تستغرق سنوات وشهورا في الزمن الآخر، إذ يزداد الناس إيمانًا وإخلاصًا وحبًا لله تعالى بشكل خارق. ولذلك يمكن أن يسمى ذلك الزمن زمن النهار أو زمن الضوء والنور، أما الزمن الذي لا يكون فيه النبي فيُعَدّ زمن الليل والظلام.

باختصار، إن الزمن واحد، لكنه يسمى ليلاً من منظور ونهارًا من منظور آخر. إنه يسمى ليلاً من حيث الظلمة التي تسبقه وأيضًا لأن الترقيات المادية لا تتحقق تماما عندها، بل يكون الازدهار والرقي بعد وفاته. ولكنه زمن النهار من حيث أفضال الله الخاصة، أي نزول الوحي وهطول البركات وتكميل الروحانية، أما الزمن الذي يليه فيكون ليلا، إذ تُحرم فيه الدنيا من البركات التي كانت تتمتع بها من قبل. فمن حيث البركات الروحانية يكون زمن النبي نهارا وما بعده ليلا، أما من حيث العظمة المادية لتعاليمه فيسمى زمنه ليلا لأنها لا تظهر إلا بعد رحيله من الدنيا، فمن سنة الله أن يبقى النبي في قومه حتى مطلع الفجر، وحيث إنه لا يأتي من أجل النعم المادية، لذلك عندما تبدأ النتائج المادية لتضحياته في الظهور وتعطي الشجرة – التي بذر بذرتها – ثمارها، يقول الله له: تعال إلينا، واتركْ هذه النعم المادية للذين يرونها أكثر قيمة مما تستحق، ونظرًا إلى هذا المعنى نفسه قد اعتبر النبي ﷺ صحابته نجومًا، لأن النجوم تظهر في الليل دائما، فقال: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" (تشييد المباني ص ٢٠).. أي أن البركات التي أنزلها الله تعالى في زمني قد نال صحابتي نصيبًا منها، فأصبحوا نجومًا. الآن وقت النهار حيث تسطع الشمس على العالم، لكن سيخيّم الليل بعدي، وعندها سوف يهدي أصحابي الناسَ بصفتهم نجومًا، فلن يفلح بعدي إلا من يستنير بأصحابي في ظلمات الليل الذي يأتي بعدي. فهكذا قد اعتبر النبي ﷺ زمنه نهارا، والزمن الذي بعده ليلا، ولكن فيما يتعلق بالفتوحات المادية فزمنه ﷺ يشبه الليل، والزمنُ بعده يشبه النهار. وبالفعل نرى أن الله تعالى قد كتب الغلبة المادية بعد وفاة النبي ﷺ حتى نال الإسلام من القوة بحيث لم يكن بوسع قيصر الروم رفض كلام أبي بكر رضي الله عنه، مع أنه هو الذي لم يستجب لدعوة النبي ﷺ خوفًا من قومه حين دعاه إلى الإسلام رغم تأثره الكبير من رسالته ﷺ. أما عمر رضي الله عنه فكتب الله له الرعب أكثر من أبي بكر، فلم يكن قيصر يستمع لقوله، بل كان يهابه ويخاف أنه إذا لم يستجب له فلن تحمد عقباه. أما كسرى فقُضي عليه نهائيًا في زمنه. أما عثمان رضي الله عنه فكُتب له من الرعب والهيبة حتى دوّى اسمه في العالم كله، وكان الكل يدرك أن عليه طاعة أمر أمير المؤمنين. فثبت أنه فيما يتعلق بالعزة

المادية فلم يكتب منها لرسول الله ﷺ ما كتب لأبي بكر وعمر وعثمان، ومع ذلك كان هؤلاء نجوم العالم الروحاني وكان محمد رسول الله ﷺ شمسها.

باختصار، إن وفاة النبي إيذانٌ ببداية ليل فيما يتعلق بالروحانية، ولكنها مطلعُ فجر فيما يتعلق بالأمور المادية، إذ تطلع الشمس فور وفاته، ويرى الناس الفتوحات والانتصارات المادية. هذا ما حصل في زمن نبينا والمسيح وموسى عليهم السلام، والآن في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضا. لقد حضر في آخر جلسة سنوية في حياة المسيح الموعود عليه السلام ٧٠٠ شخص، وأتذكر جيدا أنه عليه السلام خرج في أحد أيام الجلسة للنزهة، ولما بلغ إلى شجرة تين البنغال الموجودة في حارة "ريتي تشلّه" قال برؤية كثرة الناس وزحامهم: لقد انتهت مهمتنا، لأن آثار الغلبة والنجاح قد ظهرت، فظل يتحدث طويلاً عن رقي الأحمدية قائلا: انظروا كم كتب الله تعالى لنا من نجاح ورقي، إذ حضر في هذه الجلسة السنوية ٧٠٠ شخص. إنه نجاح عظيم وأرى أن المهمة التي بعثني الله من أجلها قد أُنجزت، ولن يستطيع الآن أحد القضاء على الأحمدية. فترى أن حضرته عليه السلام فرح بحضور ٧٠٠ شخص في الجلسة السنوية حتى رأى أن المهمة التي بُعث من أجلها قد تحققت. أما اليوم فيجتمع حوالي ٨٠٠ شخص في هذا الدرس القرآني فقط بفضل الله تعالى، وكلهم من قاديان. أما الجلسة السنوية فيحضر فيها بفضل الله تعالى ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ألفًا من الخارج.

باختصار، إن جماعتنا تحقّق انتصارًا تلو انتصار بفضل الله تعالى، ولا يمر يوم إلا ويبايع بعض الناس، وتزداد جماعتنا رقيًا وقوة باستمرار. ولكن من ذا الذي يمكنه – رغم هذه الغلبة– القول إن هذا الزمن أفضل من زمن المسيح الموعود عليه السلام؟ لا شك أن هذا الزمن أكثر ازدهارا وانتصارًا، ولكن القلب يحزن بذكر زمن المسيح الموعود عليه السلام، وتبدو هذه الانتصارات حقيرة جدا. لا تزال على مصحفي ملحوظةٌ قصيرة سجّلتُها قديما، وهي تعبِّر عن الحالة القلبية والمشاعر التي يشعر بها الذين يرون زمن النبي. لقد كتبتُ تعليقًا على كلمة "سلام" ما يلي:

"أي: تلك الليلة سلام في سلام. آه، أين زمن المسيح الموعود عليه السلام؟ كنّا قلّةً عندها، لكن كان هناك سلام."

لا شك أن الله تعالى قد كتب لنا ترقيات عظيمة بعد المسيح الموعود عليه السلام، ولكن أَنَّى لهذه الترقيات أن تُقارَن ببركة زمن المسيح الموعود عليه السلام. لا شك أن ما كُتب لنا من المكانة الظاهرة لم يُكتب للمسيح الموعود عليه السلام، وأن الذين يستمعون لقولنا أكثرُ عددًا من الذين كانوا في زمنه عليه السلام، والأموال التي هي بحوزتنا أكثرُ مما كانت زمنه، إذ يبعث الناس الآن في يوم واحد ٣٠ ألف روبية تبرعاتٍ بفضل الله تعالى في بعض الأحيان، ولم يكن هذا المبلغ يجتمع عنده عليه السلام في سنة كاملة، ولكن من ذا الذي يمكن أن يقول -رغم هذا الرقي المادي- إن زمننا أفضل من زمنه عليه السلام؟

أتذكر جيدًا أنه لما ازدادت نفقات دار الضيافة كثيرًا نتيجة كثرة الضيوف الوافدين على المسيح الموعود عليه السلام أخذه القلق مرة بشكل خاص فقال من أين نأتي بالمال لتغطية هذه النفقات؟ أما اليوم فيوجد بيننا كثيرون يستطيعون وحدهم تحمُّل نفقات دار الضيافة كلها بفضل الله تعالى. عندما نشر المسيح الموعود عليه السلام نبوءاته المتعلقة بالزلزال جاء إلى قاديان الأحمديون بكثرة، فخرج عليه السلام مع أصحابه إلى بستانه ليقيم هناك في الخيام مع الضيوف الذين كثروا. فقال عليه السلام لوالدتنا يومًا: أرى أن نقترض من أحد إذ لم يبقَ عندي مال لتغطية النفقات. ثم بعد قليل ذهب لأداء صلاة الظهر، ولما رجع كان يبتسم، فدخل في غرفته ثم خرج منها بعد قليل وقال لوالدتنا: إن الإنسان يرى آيات الله الكثيرة المتواترة ومع ذلك يسيء به الظن أحيانًا. ذات يوم لم يبقَ عندي مال لدار الضيافة، ففكرت بالاقتراض من أحد، ولكني حين ذهبتُ للصلاة تقدّمَ إليّ شخص في ثياب بالية متّسخة وأعطاني كيسًا، فقلتُ نظرًا إلى حالته الرثة: لعل في الكيس بضع قروش، ولكن لما جئت إلى البيت وفتحت الكيس وجدت فيه مئات عديدة من الروبيات.

لا شك أن ذلك المال لا يساوي شيئًا إزاء أموال التبرعات الكثيرة التي تأتينا اليوم، ولكن لو قيل لأحد منا اليوم ادفعْ كل نفقات دار الضيافة ليوم واحد وسوف نُريك يومًا من عهد المسيح الموعود عليه السلام، لقال سأدفع نفقات سنة كاملة

لا يومٍ واحد، فأَرُوني بالله يومًا واحد من زمنه عليه السلام. ولكن أَنَّى لأحد اليوم أن ينال ذلك الشرف الذي كان يناله الذين كانوا يضحّون وينفقون في زمنه عليه السلام؟

المؤسف أن فرص التضحية عندما تكون ميسَّرة للناس فإنهم يعرضون عنها، وعندما ينقضي أوانها يقولون في أسف وحسرة: ليتنا اغتنمناها! وليتنا لم نضيع تلك الفرص! واليوم أيضا قد هيّأ الله تعالى لهم فرصة عظيمة، إذ ظهر فيهم الموعود الرباني، فبوسعهم أن يقوموا بخدمات كخدمات الصحابة فينالوا جوائز كجوائزهم. ولكن كم منهم يقدرون هذه النعمة؟ كثيرون هم الذين سيبكون حسرةً حين تفوتهم هذه الفرصة.

باختصار، إن الأنبياء يأتون إلى الدنيا لبذر البذرة في وقت يظن الناس أنها ستضيع حتمًا، ولكن الله تعالى ينميها بحسب سنته الأزلية الأبدية، ويكتب لجماعته ازدهارا بعد ازدهار، وفي هذه الأثناء تتيسر فرص أخرى للتضحية بحسب سنة الله المستمرة، فيتقدم الذين يحبون الله تعالى ويتنافسون في هذه التضحيات شفاءً لغليلهم وتحقيقًا لأمنيتهم في الإنفاق، بينما يظل البعض نائمًا غافلاً حتى ينقضي زمن التضحيات، فيقلّب كفّيه حسرةً بأنه لم يعمل شيئا. إن الناس يتحسرون اليوم بأنهم لم يجدوا زمن المسيح الموعود عليه السلام، ومع هذه الحسرة لا يشتركون في التضحيات كما ينبغي. ماذا ستكون النتيجة؟ ستفوتهم هذه الفرصة فيقولون في حسرة: يا ليتنا قمنا بخدمة الإسلام في زمن المصلح الموعود♦! مع أن كثيرا من هؤلاء المتحسرين وجدوا زمنه، ولكنهم ظلوا غافلين و لم ينتهزوا الفرصة، فلم يبق لهم إلا الحسرة والأسف.

♦ "المصلح الموعود" هو أحد ألقاب المفسِّر. (المترجم)